القسم الثالث

هنري الثاني: ١١٥٤-١١٨٩

حكم في سنة ١١٢٤، فولك الخامس، كونت أنجو، إحدى أعظم اقطاعيات فرنسا فقط، وأصبح بعد ذلك بثلاثين سنة حفيده هنري بلانتغنت ملك انكلترا، ودوق نورماندي وأكوتين مع كونه كونت أنجو، وكان هنري حاكماً ناجحاً إلى أقصى الحدود، غير أن مجرد حجم ممالكه أوجد له مشاكل واسعة عملاقة، وأنجب هو وإليانور النارية، دوقة أكوتين أربعة أولاد، كانوا يماثلون ثلاثين في قوتهم مثل أبيهم، وكان لويس السابع ثم فيليب الثاني ملكي فرنسا، سادة قاريين للأراضي الأنجيفية، ولهذا كانا حليفين نافعين لهم، وذلك مثلما كانت إليانور، التي أصبحت أخطر خصوم هنري، وفيما بعد سجينته التي لاحول لها ولاطول، وكان توماس بكت **Beckt** في البداية المستشار المخلص للملك، ثم رئيس أساقفة كانتربري المعادي له، ذلك أنه كان واحداً من الشخصيات الرئيسية.

ورسم «تاريخ الشؤون الانكليزية» الذي كتبه وليم كاهن نيوبيرغ المشهد أثناء بداية حكمه، ولكن المصدر الأساسي هو الجزء الثالث من كتاب «صورة التاريخ» تأليف رالف أوف ديسيتو **Diceto** عميد كاتدرائية القديس بولص من حوالي ١١٨٠ حتى وفاته في حوالي ١٢٠١.

في السنة ١١٥٤ لتجسيد ربنا، وبعد موت الملك ستيفن، جاء هنري حفيد الملك الأول، عن طريق ابنته الامبراطورة المتوفاة، من نورماندي، واستحوذ على مملكته الموروثة أمام الجميع، وقد جرى رسمه وتعميده ملكاً، بينما صرخ الشعب في أرجاء انكلترا «ليحيا الملك حياة طويلة»، وفي الحقيقة ظهرت شرور كبيرة أثناء الحكم المتقدم، وأمل الشعب، بعد معاناته الماضية، من أجل أشياء أفضل من الملك الجديد، خاصة عندما رأى هذا الشعب انه امتلك حكمة متميزة، ومثابرة، وغيرة من أجل العدل، وظهر في كلّ خطوة من خطواته انه أمير عظيم، ومنذ البداية أصدر مرسوماً ضد المرتزقة الذين تدفقوا في ظل حكم الملك ستيفن على انكلترا من جميع المناطق الأجنبية، من أجل الحصول على الغنائم وكذلك في سبيل حرفة القتال، لاسيما الفلمنكيين منهم، حيث عمل حشد كبير منهم في البلاد، وأمر هؤلاء بالعودة إلى بلادهم، وعين لهم يوماً إذا ماتأخر أحدهم عنه وبقي في انكلترا فإنه يتعرض لبعض المخاطر ويواجهها، واستولى عليهم الرعب بسبب هذا المرسوم، وتسللوا هاربين في وقت قصير، بدوا فيه وقد اختفوا مثل اختفاء الشبح، واندهش كثير من الناس أمام سرعة مغادرتهم، وأمر بعد هذا بهدم جميع القلاع التي لم تكن موجودة في أيام جده، وذلك باستثناء عدد قليل منها قامت في مواقع هامة ومفيدة، وقد رغب في ابقاء بعض هذه القلاع لنفسه، أو وضعها في أيدي رجال أمناء للدفاع عن المملكة.

وأولى هنري الثاني في هذه الأيام الأولى لحكمه عناية حقة لمسألة النظام العام، وعمل جاهداً في سبيل بعث النشاط القانوني في انكلترا، هذا النشاط الذي بدا وكأنه مات ودفن أيام الملك ستيفن، وعين القضاة في جميع أرجاء المملكة مع موظفين قانونيين لقطع دابر مساوىء الأشرار، ولإيصال العدالة إلى المظلومين تبعاً لأهمية قضاياهم، وكان سواء انشغل في مسائل فرح ومتعة أو في شؤون الدولة يراقب مراقبة حثيثة المصالح

الملكية، وغالباً إذا ما كان أي واحد من قضاته متراخياً أو خشناً جداً، كان يصغي هو إلى شكاوى أهل المنطقة، ويقدم علاجاً ملكياً، واصلاحاً فعالاً لإهمالهم أو تجاوزهم.

تلك كانت الأعمال الأولى للملك الجديد، وقد أكسبته الحمد والثناء من قبل محبي الأمن وألجمت الأشرار وقطعت أذاهم، وأرغم الذئاب المفترسون على الفرار أو على التحول إلى شياه، أو أنهم إذا لم يتغيروا حقيقة، فقد اضطروا خوفاً من القانون على السكون دونما إيذاء مع الشياه، وحل العمل بالمحراث محل العمل بالسيف، وأخذ مقص تقليم الأشجار مكان الرمح، ومامن أحد ربط نفسه الآن بأعمال القتال، بل تمتع بنعمة من الرب بمذاق السلم، الذي تطلعوا إليه وانتظروه طويلاً من قبل، وكان هذا شأن الناس سواء اهتموا بمباهجهم أو انصرفوا نحو أعمالهم.

مع بداية حكم هنري، ظهر توماس بكت وبرز في خدمة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، ويقدم لنا وليم فتز ستيفن صورة لاهوتية، لكن فيها حياة، عن طفولة بكت وأعماله المبكرة.

علم الرب وقضى أن يكرس توماس المبارك [لخدمته] قبل أن يخرج من الرحم، وأظهر لأمه أي نوع من الرجال سيكون، ذلك أنها رأت في المنام أثناء حملها به أنها تحمل في رحمها جميع كنيسة كانتربري، وفي اللحظة التي رأى فيها الطفل ضوء النهار، حملته الوصيفة ورفعته بين يديها قائلة: « لقد رفعت من الأرض رئيس أساقفة مستقبلي»، وبينما كان رضيعاً في المهد، حلمت أمه في إحدى الليالي أنها كانت توبخ الممرضة لعدم وضعها غطاء عليه، وردت عليها الممرضة قائلة: «لاياسيدتي، لديه أفضل أغطية» وقالت لها السيدة: «أرينيها»، وجلبت الممرضة الأغطية إليها وأرتها إياها، وعندما حاولت فتحها لم تستطع ذلك وقالت لأمها: «إنها واسعة جداً لاأستطيع مدها فوق الفراش»، وبناء عليه أجابتها

أمها: «تعالي إلى القاعة وافتحيها هناك»، وبذلت الممرضة جهدها لفعل ذلك، لكنها أخفقت، وقالت: «ببساطة إنني لاأستطيع مدها كلها هنا»، وقالت الأم المندهشة وقتها: «اذهبي إلى الشارع، إلى مكان السوق، الذي هو الآن فارغ، فلاشك أنك ستنجحي في مدها هناك»، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك لاهي ولا الممرضة، فقالت والدهشة تعلوها:

«إن الغطاء واسع إلى حد انني لاأستطيع ايجاد نهايته، وأعتقد أن انكلترا كلها ستكون صغيرة جداً ليغطيها»!.

لقد ولد توماس من زواج شرعي، ومن أبوين شريفين، وكان والده غلبرت في بعض الأحيان عمدة لندن، وكان اسم أمه ماتيلدا، وكانا معاً من أهل لندن، من الطبقة الوسطى، ولم يكونا ممن يربح المال عن طريق الربا، أو متورطاً بالأعمال، بل عاشا بشكل محترم على دخليهما.

ويمكن لنا أن نستنتج أن والده تلقى بعض الاشارات العلوية فيما يتعلق بمستقبله، ونعلم ذلك من أنه عندما كان طفلاً أمره أبوه أن يذهب إلى روبرت رئيس ميرتون Merton حتى يتعلم لبعض الوقت في ذلك البيت الديني، وجاء في أحد الأيام أبوه لرؤيته، وعندما جلب الطفل إلى حضرة راعي الدير مع والده، قام الأب بالسجود أمامه متعبداً إياه، وغضب الراهب وقال والدهشة تعلوه: «ماالذي تفعله أيها الرجل الأحمق، أتسجد أمام قدمي ابنك؟ إن التمجيد الذي تفعله له، ينبغي بالحري أن يفعله لك»، ورد عليه الأب بصوت منخفض: « إنني أعلم يامولاي الذي أفعله: إن هذا الطفل سيكون عظيماً في نظر الرب».

وهكذا أمضى توماس سنوات طفولته، ثم عندما صار صبياً، وبعد ذلك عندما وصل سن البلوغ ببساطة في بيت أبيه وفي مدرسة المدينة، وعندما كان شاباً درس في باريس، وشارك بعد عودته في بعض شؤون مدينة لندن، حيث صار كاتباً ومحاسباً لدى عمد المدينة، وخلال هذه

الوظـائف وجه نفسه بطريقـة جديرة بكل مديح، وحصل على معلـومات عن العالم، لـذلك لم يجد في مستقبل الأيام صعوبة في ادارة شـؤون كنيسة انكلترا ورعـاية مصـالحهـا العامـة مع شؤون المملكـة ومشـاكلها بحـذر وحكمة، وبرهن على كفاءة وعظمة حقيقية.

وأظهر بكت امكانـات واعدة في عمله لدى رئيس الأساقفة ثيـوبولد، ممـا جعل الملك يتخـذه مستشـاراً لانكلترا في سنة ١١٥٥ ، وأعطـاه هـذا مسؤوليـة الاشراف على الأعمال الديـوانية لهنـري، وكذلـك نال دوراً في الادارة الملكية.

سنة خمس وخمسين مائة وألف

وبعد تتويـج هنري الثاني ملكاً على انكلترا على يدي رئيـس الأساقفة ثيـوبـولـد، وبنـاء على تـوصية من رئيـس الأساقفـة هـذا، وبـوسـاطتـه، وبتحـريض أيضـاً من هنـري أوف بليـوس، أسقف ونشستر، أخـو الملك ستيفن، جعل تـوماس مستشـار الملك، مؤثـراً إياه على الآخـرين، لكونـه رجلاً يقظـاً، وفاعـلاً، وعى مسائل عظيمة في عقلـه، وكان مجربـاً في عدد كبير من الأعمال، ولقد قام بأعباء واجباته العملاقة وماقتضاه منه منصبه في سبيل شكـر الـرب ولصـالح رخـاء المملكة وتقـدمهـا كلهـا، وكـانت انجـازاته كبيرة إلى حـد يمكن للمرء أن يشك فيـه: هل خدم هـو الملك بتميز عظيم وكفـاءة أكثر، أم عمل في سبيل المنفعة العامـة أكثر في السلم أو في الحرب.

وتمتعت انكلترا النبيلة بـربيع ثان، جاء بالفعل من خـلال نشاط وآراء المستشـار، ومن خـلال التعـاون المخلص لـرجـال الـدين والايـرلات والبـارونات، فقـد جـرى احترام الكنيسـة المقدسـة، وأضفيت المنـاصب

الشاغـرة على الأساقفـة ورعاة الديـرة وعلى رجال الـدين الأمناء من دون رشـوة أو شراء، وحقق الملك بفضل من ملك الملـوك في أعماله الازدهـار، فـازدادت مملكة انكلترا في غنـاها، وانهمـرت عليها البركـات، ونبعت من نبع الخصب والكثـرة، فقـد زرعت التـلال، وبـذرت الـوديـان بـالقمح، وامتلأت، وعجت الحقول بالقطعان والحظائر بالأغنام.

وكانت لنـدن مسقط رأس بكت أوسع مدن البلاد وأكثرهـا ازدهاراً، وفي سبعينات القرن الثاني عشر عنـدما كتب فتزستيفن سيرة حياة بكت، غدت عاصمـة انكلترا، فقد أعاد فتزستيفن إلى الحيـاة أبنيتها وشعبها من خلال وصفه المشرق.

يوجـد في كنيسة القديس بـولص المقر الأسقفي، وقد كـانت في إحدى المرات رئاسة أسـاقفة، واعتقـد بعضهم أنها ستكون كـذلك مـرة أخرى، لـولا أن لقب رئاسة الأسـاقفة للشهيـد المبـارك تومـاس، ولولا أن وجـود جسده قد حفظ ذلك الشرف والمكانـة إلى الأبد لكنيسة كانتربري، حيث هـو الآن، لكن بما أن القـديس تـوماس جعل المدينتين ممجـدتين: لنـدن بـولادته، وكـانتربـري بموتـه، فإن كلّ واحـدة منهما يمكنهـا محقة ادعـاء التقـدم على الأخـرى وذلك بـالنسبـة لاحترام ذلك القـديس، وفيما يتعلق بممارسـة العبـادة المسيحية يـوجـد في لنـدن وفي ضواحيهـا ثـلاث عشرة كنيسة دير عظيمـة، وإلى جانبها هناك مائة وست وعشرين كنيسـة أبرشية أصغر.

ويوجد إلى الشرق قلعـة بالاتاين Palatine [قلعة لندن] وهي قلعة عظيمـة جداً وحصينة: وقـامت الأسوار على أساسـات عميقة، وهي مثبتة بملاط مـزج بدماء الحيوانـات، ويوجد إلى الغرب قلعتـان محصنتان تحصينـاً عظيماً، ويمتد من هنـاك منهما سـور عمـلاق وكبير جداً لـه سبع بوابات مزدوجة، وأبـراج على طو ل الجانب الشمالي توزعت على مسافات منتظمة، وكانت لنـدن في إحدى المرات مسورة وقد استـدار حولها السور

من جهة الجنوب، غير أن نهر التيمز العمـلاق، والمليء بالأسماك بكثافة مع مدّ البحـر جرى ضـد الفتحات التي وجـدت في السور، ومع الأيـام هدم هـذه الأسوار، وفي أعلى المجـرى النهـري إلى الغرب هنـاك القصر الملكي لـ [وستمنستر] وهو واضح تماماً مرئي فـوق النهر، ذلك أنه بناء لامثيل له في شرافـاته الـدفاعيـة وحصانتـه، وهو يبتعـد حوالي الميلين عن المدينـة، ويتلاقى هناك مع ضاحية شعبية.

وهناك في كـلّ مكان خـارج هذه البيوت في الضـواحي، وعلى مقـربة منهم حـدائق واسعة وجميلـة عائدة إلى السكان، وقـد زرعت هـذه أيضاً بالأشجار، كما ويـوجد على الجانب الشمالي مراعي وأراضي مـرجية جميلة، يجري خـلالها أنهار صغيرة، في نهاياتها طـواحين تصـدر أصـواتاً مفـرحـة، ويقـوم بالجوار القـريب غابـة عظيمـة، فيها مـراعي حيث هناك مسـاكن حيوانـات متوحشة مثل: الـوعول، والأيل، والخنزيـر الوحشي والجواميس، ولم تكن الأراضي المفلوحة التابعة للمدينة حقولاً جرداء، بل كانت سهولاً خصبـة مليئـة بـالمزروعـات، تنتج محاصيل ممتـازة، وتملأ مخازن الفـلاح بكميات الحبوب.

وكان هناك أيضاً خارج البلدة في الجانـب الشمالي آباراً جوفية، مياهها حلوة نقية، تتدفق فوق الحجارة البراقـة، وبين هذه الآبار آبار مقدسة منها بئر كليركن Clerken وبئر القـديس كلمنت، وهي آبـار مشهورة ويتردد على زيـارة هـذه الآبـار كثير من النـاس، ويـؤمهـا عـدد كبير من التـلاميذ مـن المدارس، والشباب من المدينـة وذلك عنـدمـا يذهبـون في نزهات للاستمتاع بـالهواء النقي في أمسيات الصيف، والحياة في الواقع في هذه المدينة طيبة عندما يكون لها حاكم طيب.

ويمضي الذين يشـاركون في مختلف الأعمال، والذين يبيعـون البضائع، أو يؤجرون أنفسهم للعمل، كلّ صبـاح إلى أماكن أعمالهم تبعاً لمصالحهم، وبالاضافة إلى هذا يوجد في لنـدن على ضفاف النهر بين الخمور المعروضة

للبيع في السفن والخانات العائدة لباعة الخمور حوانيت تقدم الأطعمة المطبوخة للناس، وهكذا يمكنك أن تجد الطعام تبعاً للموسم: من اللحوم المشوية والمقلية والمغلية، والأسماك الكبيرة والصغيرة، وهناك لحوم عادية للفقراء، وأنواع فاخرة للأغنياء، وتتوفر أيضاً أنواع الطيور من صغير وكبير، وإذا ماحدث بشكل غير متوقع أن استقبل أحد السكان بعض الزوار المتعبين من سفرهم، والذين يمكن أن يفقدوا وعيهم إذا ماتوجب عليهم الانتظار حتى جلب بعض الطعام الجديد لطبخه، أو حتى يجلب الخدم الخبز، أو الماء للاغتسال، إنهم يبادرون مسرعين إلى ضفة النهر فيجدون هناك كلّ مايحتاجونه، ومهما كانت عظيمة أعداد حشود الجند والرحالة الذين يدخلون إلى المدينة، أو يستعدون لمغادرتها، في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، إنهم لن يصبروا كثيراً عن الطعام، ومثلهم الذين يخرجون من المدينة من دون عشاء، فلقد كان بإمكان كلّ انسان تجديد نشاطه وانعاش تفسه بالطريقة التي يرغب بها، والذين يرغبون بتسلية أنفسهم بشكل مميز، لايحتاجون للبحث حتى يجدوا سمك الحنش أو طيور افريقيا أو الكروان الاينوني، ذلك أن هذا المطبخ العام كان موائماً جداً للمدينة، وجزء من أجزاء خدماتها اللطيفة، ذلك أن الحكمة الموروثة عن أفلاطون قررت أن فن الطبخ هو تقليد لصنع الدواء، وهو يزين مناطق الحياة الحضارية.

ويوجد مباشرة خارج أحد الأبواب حقل منبسط ناعم [سمث فيلد] بالحقيقة والاسم، ويقام هناك خلال كلّ ستة أيام من أيام الاسبوع —مالم يعترض ذلك يوم عيد رئيسي— عرض شهير للخيول الجميلة للبيع، ويحضر هناك الايرلات والبارونات والفرسان الذين يكونون في المدينة، ويخرج عدد كبير من أهل المدينة إلى المعرض للمشاهدة أو للبيع، وإنه لمن الممتع أن ترى الخيول القصيرة والسريعة بألوانها اللامعة، وهي تجري في حلباتها في حركات رشيقة تضع خلالها حوافرها الأمامية على

جهة واحدة، ثم يمكن للمرء أن يشهد إثر هذا الخيول الصالحة للسادة، وهي تتحرك حركات أقل انسيابية لكن فيها رشاقة وقوة وذلك أثناء ركضها، وتجد هنا خيولاً أصيلة، لكن لم تتعود بعد على اللجام، وهي تقفز قفزات عالية أثناء سيرها، وكانت هناك أنواع أخرى من الخيول المعدة للنقل وهي قوية ونشيطة، وبعد هذا كله هناك خيول الحرب، وهي عالية الثمن ذات قوام جميل ومنظر بهي مع أذنين تتحركان بسرعة، ورقبة مرتفعة وأرداف كبيرة، وعندما تعرض هذه وتظهر طريقة سيرها، يجرب الباعة أولاً الخيول اللطيفة، ثم الخيول السريعة، حيث تتحرك الأطراف الأمامية معاً وكذلك الخلفية، وعندما يكون هناك سباق على وشك الشروع به، تدخل به الخيول القوية والسريعة وهنا تتعالى الأصوات، وتصدر الأوامر باستبعاد الحيوانات الضعيفة، ويحضر الفرسان الذين سيمتطون هذه الخيول السريعة أنفسهم للسباق، وقد يكونون ثلاثة، وأحياناً اثنين على حسب الاتفاق، وينبغي أن يكون هؤلاء الفرسان بارعين في قيادة الخيول، ويضعون بالعادة اللجم في أفواه الخيول، ومن أجل أن يبدأ السباق بشكل جيد هناك رئيس مسؤول، وتحضر الخيول وتدخل في أجواء السباق حسب الامكان، وتتحرك أطراف الخيول، وهي عديمة الصبر أثناء الانتظار لذلك لايمكنها الوقوف بثبات، وعندما تصدر شارة السباق يعدون بأقصى ما أمكنهم، ويندفعون في الحلبة بسرعة شجاعة، ولأن الفرسان حريصين على نيل النصر، فإنهم يستخدمون مهامزهم لحث الخيول المطلقة العنان، ويحثونها أيضاً بالصراخ وبالسوط، ولابد أنك ستوافق هرقل على قوله: « كلّ شيء بالحركة»، وستعرف أن زينون قد أخطأ تماماً عندما قال: «لاتوجد حركة ولايوجد هدف للوصول إليه».

وإلى جانب هؤلاء تقف في طرف آخر من الميدان بضائع أهل المنطقة من أدوات الفلاحة إلى الخنازير بأطراف طويلة، والبقر بأثداء مليئة،

والثيران ذوات الحجم الهائل، والأغنام ذات الأصواف، وتقف أيضاً أكاديش صالحة للفلاحة، بعضها كبير مع فلوه، ويتبع بعضها الآخر عن قرب مهرها.

ويقدم إلى هذه المدينة كلّ أمة تحت قبة السماء، ويجلب التجار بسرور بضائعهم بوساطة البحر، فالعرب يرسلون الذهب، والتوابل السبأية والبخور، ويجلب السكيزيون الأسلحة، وتأتي زيوت التمور من بلاد بابل الغنية والكبيرة، وترسل بلاد النيل أحجاراً كريمة، ويجلب رجال النروج وروسيا الفراء وجلود السمور، ولم تكن الصين غائبة بحريرها الأرجواني، ويأتي الغاليون ومعهم خمورهم.

وبالنسبة للتاريخ ظهر أن لندن أقدم بكثير من مدينة روما، ومع أنهما تنحدران من الجدود التراجانيين، لقد تأسست من قبل بروتوس قبل روما التي تأسست من قبل روميلوس وريموس، حيث مابرحوا يمتلكون الشرائع نفسها من أصلهم العام، وهذه المدينة مثل روما مقسمة إلى أقسام، ولها مجلس عمد سنوي بدلاً من المجالس، ولها تنظيم للسادة ومجالس ادارية أدنى، وتمتلك في شوارعها مجاري وقنوات مياه، وفيها أماكن محددة لسماع القضايا ولعرضها والحكم فيها، وفيها عدد من المحاكم، وهي تعقد اجتماعاتها المنفصلة في أيام محددة.

ولا أعتقد بوجود مدينة سجلها أفضل بالنسبة للكنيسة ولأعمالها، فهي تقدم الاحترام والتبجيل للأوامر الربانية، وتحافظ على أيام الأعياد، وتقدم المساعدة والضيافة للغرباء، وتؤكد أعمال الخطوبة، وتعقد الزيجات، وتحتفل بالأعراس، وتقيم الاحتفالات، وتحتفي بالضيوف، ويمكن أن نضيف أيضاً: تهتم بالجنائز وبدفن الموتى، ومصائب لندن هي السكارى الحمقى الذين يشربون بلا حدود، والحرائق المتوالية.

ونضيف إلى ماتقدم أن غالبية الأساقفة ورعاة الديرة في انكلترا هم

من أهل لندن ورجالها الأحرار، ويمتلك كلّ واحد منهم بيته الفخم في بلدته، ففيها يعيشون ويمضون معظم أوقاتهم، ويذهبون إلى لندن عندما يستدعون لحضور اجتماع مع الملك أو مع مطرانهم، أو ينحدرون إلى هناك لقضاء مشاغلهم الخاصة.

وينشغل الشباب في أيام الأعياد خلال الصيف في رياضات الرمي، والركض، والقفز، والمصارعة، ورمي الحجارة، وقذف الرماح إلى ماوراء اشارات محددة، وبالقتال بالسيف والترس.

وتقود أفروديت رقصات الفتيات، حتى تجد الأرض تهتز تحت الأقدام المتطايرة، حتى ظهور القمر.

وفي الشتاء هناك قبل كلّ يوم عيد تقريباً، وقبل الغداء، إما خنازير وحشية مسلحة بأنياب قاطعة تقاتل من أجل حياتها، أو من أجل لحمها، أو ثور قوي مع قرون متينة للنطح، أو دببة كبيرة تترك لانشاب قتال مع كلاب صيد تطلق عليها.

وعندما تثور الزوابع العظيمة في الشمال، ويتجلد السور الشمالي من المدينة، ينطلق إلى هناك جماعات من الشباب للعب فوق الجليد، فبعضهم يركض بسرعة فائقة فوق الجليد وهو مفتوح الساقين أو يتزلج فوق كتلة كبيرة من الجليد، ويصنع آخرون مقاعد من كتل ضخمة من الجليد، وفي الوقت الذي يجلس فيه أحدهم فوق المقعد، يركض الآخرون بأيدي متشابكة نحو الأمام ويجرون المقعد خلفهم، وغالباً ماينـدفعون بسرعة عظيمة إلى حد أنهم قد ينزلقون فينكبون جميعهم على وجوههم، ويضع آخرون أكثر براعة في رياضة الشتاء، على أقدامهم عظام الساق لبعض الحيوانات، ويربطوها بإحكام حول كعابهم، ويحملون في أيديهم أعمدة مغطاة بالحديد، يضربون فيها من وقت لوقت ضد الجليد، وتراهم مندفعين بسرعة فائقة فوق الجليد، حتى لكأن أحدهم طائر يطير، أو رمية

قذفت من آلة حرب، ويقوم في بعض الأحيان اثنان منهم، بناء على اتفاق ضد بعضهما من مسافة بعيدة جداً، وعندما يقتربان من بعضهما بعضاً، يرفعان الأعمدة ويسدد كلّ واحد منهما على الآخر، والذي يحدث هو أن يسقط أحدهما أو كلاهما، لكن ليس بدون جراحة جسدية، لأنهما عندما يسقطان تندفع أجسادهما إلى مسافة بعيدة عن بعضهما بفعل قوة ركضهما، وحيثما لامس الجليد رأسيهما، يكشط الجلد تماماً، وغالباً مايحدث أن تنكسر ذراع أو ساق، إذا ماسقط الضحية مع عموده تحت خصمه، لكن أعمارهم فيها جشع نحو الفخار، فالشباب يتشوقون إلى النصر، ويمارسون المباريات الخادعة من أجل تعويد أنفسهم على الشجاعة في معارك حقيقية.

ويجد كثير من الناس المتعة بالرياضة مع الطيور في الهواء، ومع الصخور والنسور والعقبان، ومع الكلاب التي تصطاد فريستها في الغابات، وامتلك السكان الحق بمطاردة الفرائس في مدل سكس وفي هارتفورشير، وفي جميع منطقة تشلتيرن Chiltern ، وفي كنت حتى نهر كري Cray.

وأنجبت هذه المدينة في العصور المسيحية الامبراطور قسطنطين الكبير ابن الامبراطورة هيلينا (حنه)، وهو الذي منح روما وجميع الشارات الامبراطورية للرب وللقديس بطرس، وللبابا سلفستر، البابا الروماني [منحة قسطنطين]، فله فوّض منصب السياسة، فهو لم يعد يشعر بالسرور إذا مادعي باسم الامبراطور، بل بات يفضل لقب «المدافع عن الكنيسة الرومانية المقدسة»، وخشية منه أن ينزعج المولى البابا بضجيج الحياة المدنية وصراعاتها التي تحدث أثناء حضوره، آثر هو نفسه أن يترك المدينة التي منحها للمولى البابا، وبنى لنفسه مدينة بيزنطة، وفي العصور الحديثة أنجبت لندن أيضاً الملوك الرائعين المشهورين:

الامبراطورة ماتيلدا، والملك الشاب هنري بن هنري الثاني، ورئيس

الأساقفة توماس المبارك، ذلك الشهيد الرائع في سبيل المسيح، فهي لم تنجب قديساً طاهراً خيراً منه، ولا واحداً عزيزاً أكثر منه على قلوب الرجال الطيبين في جميع أرجاء العالم اللاتيني.

هناك تعارض معتبر بين رواية فتزستيفن، وماكتبه بمهارة روائية جيرالد أوف ويلز، وفي نظرة نحو أخبار حوادث أيام هنري الثاني الأخيرة، نجد هذه الرواية القصيرة عنه وعن إليانور أوف أكوتين تظهره في ذروة حقده وضغينته.

عندما انقضت سنتا الحرب (١١٧٤) وتوقف القتال مع التعذيب، عزا الملك نجاحه —مثله في مثل فرعون آخر— لا إلى الرحمة الربانية بل إلى قوته، وجعل قلبه قاسياً، وعاد برعونته إلى بؤرة شروره المعتادة، أو بالحري، عاد إلى بؤرة أعظم شروراً، ومنذ أن انحدر أخذت الأشياء تزداد سوءاً، ولكي أتولى ذكر واحدة من هذه المساوىء، وأدع البقية: لقد تولى سجن زوجته الملكة إليانور عقوبة لها على تدمير زواجهما، ذلك أن خيانته الزوجية التي كانت سرية من قبل، باتت الآن مكشوفة وواضحة، وهي لم تكن مع «وردة نقية» حسبما دعيت بشكل زائف وسميت، بل بالحري مع واحدة غير طاهرة أو نقية، وبما أن الناس يقلدون ملوكهم، هو لم يسىء فقط بسلوكه الشخصي، بل بالمثل السيء الذي ضربه(١٥).

هذا ومعروف عظيم المعرفة كيف تصرفت إليانور ملكة فرنسا عندما كانت في فلسطين فيما وراء البحار، وكيف تصرفت لدى عودتها نحو زوجها الأول، ثم نحو زوجها الثاني، وكيف أن أولادها بعثوا آمالاً عظيمة عندما كانوا شباباً، لكن هذه الآمال ذبلت وتلاشت.

فمن ابنتيها: الصقلية والسكسونية، توفيت الأولى دون أولاد، وتوفيت الثانية بدون سعادة، واحدة بدون نتاج، والثانية لم تكن خلوة من

التعاسة، أما فيما يتعلق بالآخرين: الفرع الاسباني والفرع الألماني، والفرع البريتاني، ستكون الأجيال المقبلة في وضع يمكنها من الحديث عن مصيرهم، دعونا لانمضي فيما بينهم، حيث أن بعضهم قد يجد هذا مضراً ومؤذياً، ومن المؤمل، بإرادة الرب أن يأتي بعض الخير من الزواج الاسباني السعيد.

ومن المعروف أيضاً بشكل واضح أن ابنتيها من الملك لويس ملك فرنسا: واحدة تزوجت من هنري كونت شامبين، وتزوجت الثانية من أخيه ثيوبولد كونت بليوس، وقد سقطتا مع ماأنجبتاه في فلسطين وفي بلاد الاغريق. .

ولكي نبين كيف كان نسل الملك هنري ممتحنين، علينا فقط أن نتذكر أن الامبراطور هنري الخامس الذي تزوجت إليه ماتيلدا، ابنة هنري الأول وأم هنري الثاني، قام من أجل مطامح دنيوية بأسر أبيه الطبيعي وتقييده بالأغلال، ثم كرر فعلته هذه مع أبيه الروحي —أعني بذلك البابا باسكال— وبعد ذلك تخلى عن حكم الامبراطورية، وذهب للترهبن في غربي بريطانيا، قرب تشستر، وعاش حياة قداسة وتوبة حتى موته، وعندما عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيها في بلدها، زوجها من غيوفري كونت أنجو، مع أن زوجها كان مايزال حياً، ورزق غيوفري منها بثلاثة أولاد، اثنان منهم توفيا بسرعة كبيرة وبترا وهما في ريعان الشباب على الرغم من الآمال العظيمة التي علقت عليهما، وبدأ الثالث بشكل أفضل مما انتهى إليه.

ومجدداً، عندما كان غيوفري أوف أنجو كبير أمراء فرنسا، استفاد من الملكة إليانور، ولهذا السبب غالباً ماحذر ابنه هنري، وأنذره، وأخبره ألا يلامسها، وقد قيل إن سبب ذلك لكونها زوجة مولاه، ولكونه قد عرفها هو نفسه شخصياً، وآخر هذه الآثار المرعبة المغضبة، لقد روي أن الملك هنري قد نام زانياً مع ملكة فرنسا المذكورة، وانتزعها من مولاه وزوجها

من نفسه، وإنني أتساءل: كيف يمكن لأي شيء سعيد أن يأتي من هذه الزيجات؟.

وليس على غرار جيرالد أوف ويلز، قام المؤرخ رالف أوف ديسيتو Diceto بالكتابة حول الأحداث التاريخية بطريقة ايجابية، وقد بدأ حكايته عن حكم هنري الثاني مع حوادث سنة١١٥٥ .

ولد الولد هنري في لندن لهنري ملك انكلترا والملكة إليانور في ٢٨شباط، وقد جرى تعميده من قبل رتشارد أسقف لندن.

وتم انتخاب روبرت عميد سالسبري أسقفاً لإكستر Exeter ، وجرت سيامته من قبل ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

وجرى تتويج فردريك ملك ألمانيا امبراطوراً من قبل هادريان في كنيسة القديس بطرس [روما]، وغادر هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، انكلترا دون الحصول على إذن الملك، ونتيجة لذلك أمر الملك بهدم ستة من قلاعه. وتم حرمان وليم بيفيريل Peverel أوف نوتنغهام من ميراثه لأنه أعطى السم إلى رانولف ايرل تشستر، واستولى الملك على حصن غلوستر وعلى قلعتي بردجنورث Bridgnorth وويغمور Wigmore ، الذين حصنهم هيوج أوف مورتايمر Mortimer ضده.

سنة ست وخمسين ومائة وألف

عبر الملك هنري القناة من دوفر، ونزل خارج وزانت Wissant ، حيث قابل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل، التي كانت عمته.

سنة سبع وخمسين ومائة وألف

أنجبت الملكة إليانور ولداً ذكراً في اكسفورد، أطلق عليه اسم رتشارد، وعبر الملك هنري عائداً إلى انكلترا، وأعاد مالكولم ملك اسكوتلندا إليه مدينة كارل آيل، وبلدة بامبره، ونيوكاسل فوق التاين Tyne، ومنطقة لوثيان Lothian.

ووصل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل إلى القدس.

سنة ثمان وخمسين ومائة وألف

ذهب هنري ملك انكلترا ليلبس التاج في وورستر، غير أنه بعد القداس الديني وضع التاج على المذبح، غير راغب في أن يتوج ثانية [لأنه كان لديه اهتمام ضئيل بالرسوم].

وولدت الملكة إليانور ولداً سمي غيوفري.

وجرى صك نقد جديد في انكلترا.

وقدم توماس، مستشار الملك إلى باريس، وسط احتفال عظيم، بغية تلقي مرغريت ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة لهنري ابن ملك انكلترا.

وعبر هنري ملك انكلترا القنال فور سماعه نبأ وفاة أخيه غيوفري، واستولى على ننتس Nantes.

ومضى لويس السابع ملك فرنسا متقدماً خلال نورماندي، عازماً على الوفاء بنذره في جبل القديس ميكائيل، وقد جرى استقباله في الكنائس

الكاتدرائية برسوم دينية، وجاء الناس واحداً واحداً للترحيب به، وقدموا له كثيراً من الهدايا.

وقدم ملك انكلترا إلى باريس بناء على دعوة الملك لويس السابع ملك فرنسا، وجرى استقباله بالقصر، وأعطي مكاناً للاقامة في رواق كهنة نوتردام.

سنة تسع وخمسين ومائة وألف

قاد هنري الثاني ملك انكلترا جيشاً ضد طولوز، واستولى على عدد من القلاع الحصينة في تلك المنطقة، ولقد قيل:

لم يهاجم ملك انكلترا طولوز نفسها احتراماً لملك فرنسا الذي كان مقيماً بها، أما بالنسبة لملك فرنسا، فقد رغب عن طواعية بالبقاء بها مساعدة لكونت سانت جايل (صنجيل) الذي تزوج من أخته وأنجب منها أولاداً، وهكذا غدا الملكان متعاديان.

سنة ستين ومائة وألف

كان هناك انشقاق كنسي بعد وفاة البابا هادريان، فقد جرى انتخاب اثنين من البابوات، مع أن الاسكندر كان هو البابا الحقيقي، وقبل ملك انكلترا وكذلك ملك فرنسا بالاسكندر واعترفا به كبابا، لكن امبراطور ألمانيا وجميع رجال الدين الألمان أيدوا أوكتافيان، وبعث الامبراطور إلى ملكي فرنسا وانكلترا يطلب منهما أن يقدما مساندتهما إلى هذا البابا

نفسه، لكنه عبثاً فعل.

وتوفيت ملكة فـرنسا، ابنة ألفونسـو امبراطور اسبانيا أثنـاء الولادة، وقد ولـدت ابنـة، لحسن حظهـا بقيت حيـة، ولم يتقيـد الملك لـويس بـوقت الحداد المعتاد، بل خـلال أسبوعين تـزوج من آدلا، ابنة الكـونت ثيوبـولد كونـت بليوس، ورفض سمسـون رئيس أساقفـة رايمس تعميدهـا ملكة، لأن زواج أخت آديـلا مـن فيليب أخي الملك قـد فسخ بسبب القــرابـة الوشيجة بينهما.

وخطب هنـري ملك انكلترا مرغـريت ابنـة ملك فـرنسا، التي كـانت تحت حمايته لابنه هنري، وبهذا ربح السيطرة على قلعة غيسور Gisors وكانت لديه نوايا منذ زمن طـويل تجاه هذا الحصن، الذي كان موكلاً إلى فرسان الـداوية، حتى يحين الوقت، يوم العـرس بين الولدين حيث يجري تثبيته، ومهما يكن من أمـر لقد ادعى ملك فـرنسا الآن مع اخـوان الملكة أن تاريـخ اليوم قد حـدد أبكر ممـا توقعـوه، وكانـوا لهذا مزعـوجين جداً، وانطلاقاً من شعور العداوة نحـو ملك انكلترا، انطلق ملك فرنسا وكونت ثيـوبولـد مع حلفائهما نحـو تحصين دفاعـات شومـونت Chau-mont ، آملين بذلك تسبيـب الأذى وجلب العار لعدوهــم، وجاء على كلّ حـال ملك انكلترا مسرعاً مع رجـالـه وحاصر القلعـة، وعندهـا انهزم الملك الفرنسي وكـونت ثيوبـولد، وبعـد مضي عدة أيـام أرغم القلعة على الاستسلام، واحتجز خمسـاً وخمسين من فرسان ثيوبـولد أسرى في داخلها، وجـرى الاحتفال بـزواج ابن ملك انكلترا من ابنـة ملك فـرنسا بمـوجب السلطـة المفـوضـة لهنـري أوف بيزا، ووليم أوف بـافيـا، وهما كـاردينـالان كاهنـان ومندوبـان للكرسي المقـدس، ومع هذا كلـه كان الطفل مـايزال فقط في السـابعة من عمـره والطفلة في الثـالثة، وحـدث هذا في نـوفبورغ Neufbourg يوم الخامس من تشرين الثاني.

- ٤٨٣ -

سنة إحدى وستين ومائة وألف

جرت سيامة رتشارد رئيس شمامسة كوفنتري أسقفاً للكنيسة نفسها، وكان أبوه رتشارد أسقف تشستر، والذي تولى السيامة هو رئيس الأساقفة ثيوبولد، لأن القاعدة قضت أنه إذا كان أولاد الكهنة سلوكهم بالحياة جديراً بالتقدير، لايجري استبعادهم من المناصب المقدسة، ولامن الكاتدرائيات الكنسية، لابل حتى ولامن البابوية نفسها، فعلى سبيل المثال كان نيكولاس رجلاً من أصل انكليزي، وكان أبوه كاهناً، فغدا هو بابا باسم هادريان الرابع.

سنة اثنتين وستين ومائة وألف

حشد لويس ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا قواتهما من جميع الجهات، وبدا أن الصدام المسلح بينهما أمر لايمكن تجنبه، وعلى كل حال لقد تصالحا مع بعضهما بعضاً وجرى الصلح قرب فرتفال Freteval.

وولدت ملكة انكلترا بنتاً في روان، وقد منحتها اسمها، أي إليانور، وتوفي رتشارد أسقف لندن في الخامس من أيار. وأقسم أساقفة انكلترا ورعاة ديرتها يمين التبعية لهنري الابن الأكبر للملك، وكان الملك هو الذي أصدر أوامره إليهم للقيام بذلك، وكان توماس، مستشار الملك الأول بينهم في تأدية يمين الولاء، واحتفظ باخلاصه للملك مادام حياً، وبقدر مارغب في أن يحكم.

والتقى فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مع لويس

ملك فـرنسا على مقـربـة من بيسانكـون Besancon ، لاتخاذ قرار حـول أي واحد من البـابـوين سيفضـلان، وأعنى بذلـك: أوكتافيـان أو الاسكندر، وبذلك ينهيا الانشقاق الذي عانت منه الكنيسة.

وأوجدت وفـاة ثيوبـولد رئيس أسـاقفة كـانتربري في ١١٦١ ضرورة اختيار خليفة له.

وجـرى استدعـاء جميع رجـال الدين في منطقـة كـانتربري إلى لنـدن، وبحضور هنـري ابن الملك والقضاة تم انتخـاب تومـاس رئيس شمامسة كانتربـري بشكل مهيب وبالاجماع رئيسـاً للأساقفـة، وحمل هنري أسقف ونشستر الأنباء في أن تـوماس قد انتخب بلا معـارضة، إلى قاعة الـرهبان في وستمنستر، يوم الأربعاء قبل أحد الشعانين.

وتمت سيامته في يوم الأحد التالي من قبل هنري أسقف ونشستر، الذي كان آنذاك نائب الكرسي المقدس في لندن .

وجرى أرسال الرسل إلى البابـا الاسكندر بأن المقترعين من الأساقفة في كانتربـري قد اختـاروا رئيساً لهم، بـاجماع كلّ الأصوات، وقـد سيم رئيساً للأساقفـة من قبل مجمعهم، ولدى سماع البابا بهذا أعطى مـوافقته، وبناء عليه، عنـدما قـرئت رسائل الأسـاقفة، ورسـالة راعـي دير الثـالوث [أي راعي كاتـدرائية كـانتربري]، ورسالـة الملك وضع الطلب بالموافقـة أمام مجمع الكـرادلة الكنسي، وقـد وافق الجميع بـدون اعتراض أو تردد وإثـر هذا جرت مناولة طيلسـان رئيس الأساقفة إلى الرسل وسط احتفاء عظيم واحتفال، وتناول رئيس الأسـاقفة توماس —المقيـد بالشروط المعتادة، وفي ظل قيـود القـداسـة— الطيلسـان مـن على المذبح العـالي لكـاتـدرائيـة كانتربري.

وعندما ارتدى هذه الأثـواب، التي حبست، بناء على أوامر الرب، على

أعلى رجال الدين، لم يغير فقط مظهره الخارجي، بل طرائق تفكيره وتوجهات عقله، حيث توقف عن الرغبة بالاهتمام بمسؤوليات المستشارية، وأراد بالحري أن يعفى منها، وبذلك يمكنه أن يكرس المزيد من الوقت لمخاطبة رعيته، والاشراف على شؤون الكنيسة، ولهذا بعث توماس برسالة إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في نورماندي قدم بها استقالته من المستشارية وتخلى عن الختم، وكان السبب الوحيد لهذه الاستقالة المفاجئة هو تصوره لواجبات المنصب الجديد.

يتعارض اطراء فتزستيفن حول تحول بكت مع معايير تحليل ديسيتو

في سيامته كان توماس بكت قد مسح بدهن الرحمة الربانية المرئية، حيث وضع جانباً الرجل الدنيوي، وتلبس يسوع المسيح، وتخلى عن الواجبات الدنيوية لأعمال المستشارية، وكان مهتماً بالقيام بواجبات رئيس أساقفة جيد، وفي سبيل هذه الغاية راقب عقله مراقبة دقيقة، وكانت خطاباته حزينة، ولمصلحة ونجاة المستمعين إليه، وكانت أعماله أعمال رحمة وشفقة، وكانت قراراته مقرونة بالعدل والمساواة.

وكان يرتدي قميصاً من الشعر من أكثر الأنواع خشونة، وكان هذا القميص يصل إلى ركبتيه، وهو مليء بالطفيليات والحشرات، وغذى نفسه بقليل من الطعام، وكان شرابه المعتاد هو الماء المعد لطبخ العلف، وكان على كلّ حال أول من يتذوق الخمرة قبل أن يقدمها إلى الذين يجلسون إلى المائدة معه، وكان يأكل بعض اللحم الموضوع أمامه، غير أنه تغذى بشكل رئيسي على الخبز، علماً أن كلّ شيء كان نقياً للنقي، والمسألة هنا هي لوم الشهية وليس لوم الطعام، وعرّض مراراً ظهره العاري لسوط النظام، ولبس فوق قميصه الشعري مباشرة رداء الرهبان، بحكم كونه راعي رهبان كانتربري، وارتدى فوق هذا ثوب شماس

ليماشي عادات رجال الدين، وكانت ربطة العنق، وهي رمز النير الجميل للمسيح، حول رقبته ليل نهار، وكان مظهره الخارجي مظهر رجل عادي، لكنه في داخله كان مختلفاً، وفي هذا قلد القديس سيباستيان والقديسة سيشيليا، فالأول مارس تحت رداء جندي أعمال جندي المسيح، وبينما غطت القديسة جسدها بمسح خشن لايساوي شيئاً، تزينت خارجياً بثوب حيك من الذهب.

وكان يغسل في زنزانته الخاصة كلّ يوم أقدام ثلاثة عشر متسولاً، وهو راكع على ركبتيه، وذلك تخليداً لذكرى المسيح، ومن بعد تزويدهم بالطعام كان يعطي لكل واحد منهم أربعة شلنات، وإذا حدث في أية مناسبة —وهذا أمر نادر— وحيل بينه وبين ممارسة هذا العمل شخصياً كان يحرص عظيم الحرص أن يوكل إلى أحدهم القيام بذلك، وعندما يكون وحيداً، إنه لمدهش حقاً كيف كان يستغرق بالبكاء، ويتمثل عندما يكون أمام المذبح آلام الرب وكأنها قائمة بالجسد أمامه، وكان يناول القربان المقدس بطريقته الخاصة التي كان يقوى بها إيمان وسلوك الذين يشاهدون ذلك.

زد على هذا كان يرعى في بيته المعوزين والمحرومين، فيعطي الثياب لعدد كبير حتى يتمكنوا من مقاومة قساوة الشتاء، وكان في كانتربري يستقبل كثيراً منهم شخصياً، ويجلس ملاصقاً لهم كأنه واحد من رهبانه، فيدرس واحداً من أكبر المجلدات، ويذهب بعد هذا ليزور الرهبان المرضى، من أجل أن يعلم مايحتاجون إليه وليلبي رغباتهم، ولقد كان المستشار للمظلوم، وللزوج الأرمل، والصديق لليتامى، يضاف إلى هذا كان متواضعاً مواسياً للطيف وقاسياً تجاه المتكبر.

وكان رئيس الأساقفة توماس الرائع، معارضاً لتوقعات الملك، وكذلك لتوقعات كلّ انسان آخر، لذلك هجر العالم بشكل كلّي، ولهذا عانى من تلك المحنة بشكل مفاجىء، التي هي من عمل يد الرب، وهي المحن

التي دهش الناس جميعاً تجاهها.

ثم نعود إلى ديسيتو ومعالجته للشقاق المتصاعد بين الملك ورئيس الأساقفة.

سنة ثلاث وستين ومائة وألف

عندما أعد الملك هنري ملك انكلترا أراضيه في نورماندي، وبريتاني، ومين، وأنجو، وتورين، وأكوتين، بما رآه مناسباً، عاد إلى انكلترا، ورسا في ثاوثأمبتون في يوم ٢٥كانون الثاني، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري لمقابلة الملك وعانقه، لكن بدون مشاعر طيبة، مشيحاً بوجهه بعيداً، الأمر الذي كان بإمكان كلّ واحد من الحضور أن يراه، ووضع توماس الذي ارتقى من رئيس لشمامسة كانتربري إلى رئيس للأساقفة، جانباً استقالته من رئاسة الشمامسة وأجلها لبعض الوقت، وذلك على الرغم من طلب الملك الملح جداً، وأخيراً استقال من هذا المنصب لأن الملك استجاب لذلك، ومع أنه بهذا استرد رعاية الملك التي حرم منها نتيجة لهذا التأخير، هو لم يعترف بهذا بشكل صريح(١٦).

جرى في ٢٢تموز استدعاء روجر دى كلير، إيرل أوف هارتفورد إلى وستمنستر وذلك من قبل توماس رئيس أساقفة كانتربري ليقدم له الولاء من أجل قلعة تونبردج وأراضيها، لكن الإيرل رفض بتصميم طلب رئيس الأساقفة، مؤكداً أن الاقطاع المختلف عليه كان عائداً إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وحقوق الخدمات العسكرية المترتبة عليه والشؤون المالية العامة عائدة إلى الملك.

وقدم مالكولم ملك اسكوتلندا، وريس Rhys أمير جنوبي ويلز،

وأوون Owen أمير شمالي ويلز، وجميع نبلاء ويلز، الولاء إلى ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري، وجرى ذلك في وودستوك يوم الأول من تموز.

وجرى بحث عام وتقصي في جميع أرجاء انكلترا لإيجاد من يمتلك حق الخدمة المدنية تجاه كلّ واحد على حده، وفي أثناء البحث في كنت قرر القضاة أن وليم أوف روس Ros يجب عليه تقديم الولاء إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وذلك في أي عمل من أعماله، وهكذا سببت الكراهية الشخصية الأذى للكنيسة بشكل عام.

وعندما نقل رئيس الأساقفة توماس منصب مسؤولية المعيشة في آينزفورد Eynesford الشاغر وسلمه إلى واحد اسمه لورانس، ادعى وليم صاحب آينزفورد أنه هو نفسه يمتلك الحق للتعيين في ذلك المنصب وطرد لورانس، ورد عليه رئيس الأساقفة فحرمه من الكنيسة، ولأن هذا حدث دون إخبار الملك، كان الأخير غاضباً، وأكد بالحقيقة أن كرامة الملك غير مفصولة عن كرامة مملكته، وأنه مامن قائد وجندي تابع للملك، ومامن واحد من وزرائه، ولاواحد من التابعين له (مهما كانت مكانتهم) سواء احتفظوا بقلعة أو بلدة أو غابة، يجوز حرمانه من الكنيسة بقرار من أي واحد من دون علم الملك، وذلك خشية تدنيس الملك من قبل المحروم، لدى زيارة قائد محروم له وقيام الملك بمعانقته أو باستقباله في مجلسه.

وبعث الملك هنري أرنولف أسقف ليزوكس Lisieux ، ورتشارد رئيس شمامسة بواتيه بسفارة إلى البابا الاسكندر، الذي كان آنذاك في منطقة الشقاق في فرنسا، ولقد عانيا لمدة ثلاثة أشهر، وتعرضا للمخاطر من البحر الهائج والأمواج العاتية ست مرات، ومع أنهما بذلا جهوداً عظيمة ليحصلا على التأييد بشأن قوانين المملكة في سلطات البابا، لقد كانا غير قادرين على تحقيق أي شيء، لذلك عندما عادا أخيراً لم يكن بإمكانهما فعل أي شيء للتخفيف من غضب الملك الذي انفجر الآن

ضد عدد كبير من الأشخاص.

سنة أربع وستين ومائة وألف

وقيل رغب ملك انكلترا في انـزال عقوبـات قاسية على بعـض أعضاء رجـال الدين الـذين كانـوا مدانين بجـرائم، مقدراً أن تسلم مثل هـؤلاء الـرجال عقـوبات أدنى ممـا يستحقون يحط من النظـام ككل، ولهذا رسم بتحويل رجـال الدين الذين عدّوا مجرمين بشكل واضح من قبل قضـاته، إلى أسقفهم، والـــذيـن يجدهم الأسقف مجرمين، عليـــه أن يجردهـم من سلطـاتهم بحضـور واحـد من قضاة الملـك، ويتوجب عليـه أيضـاً بعـد المحاكمة أن يسلمهم لتلقي العقوبة.

وإثر هـذا وضع رئيس أساقفة كـانتربري أمام المحاكمـة بسبب أعماله كمستشـار، وظهـر أمـام المحكمـة في ١٢ تشرين الأول في نـورثأمبتـون، واجتمع هنـاك الأساقفـة والإيرلات والبـارونات من جميع المملكـة، وذلك بناء على الأمر المستعجل من الملك، وجرى استـدعاء روجر رئيس أساقفة يـورك، وظهر هنـاك، وكان قـد جرى بأمـر من مستشاريـة تومـاس تعيين مشرفين على ممتلكات الأسقفيـات، وبما أن توماس تجاوز كمستشـار حدود سلطاته في حاشية الملك (استحـوذ لسنوات كثيرة على قلعتي بيركهامستد وآي، وكان يفعل بهما مايشـاء) بدا ذلك لمعظم الناس متوائماً مـع القانون الـذي ينبغي اتخاذه لحسـاب مبلغ المرابـح، ومع هـذا كلـه، كـان قبل أن يـرسم رئيسـاً للأسـاقفـة قد نـال من هنـري ابن الملك وولي عهـده حق الحرية والاعفاء من الـواجبات القاضية بتقـديم حساب، وعلى كلّ حال، بما أنه كان من غير الممكن بالنسبة لتـوماس أن يوثق هذا الإعفاء ويبرهن أنه قد منح لـه، قام قادة الكنيسة بإصـدار حكم ضده، ولم يستطع هو لا

الاعتراف بالتهمة ولا بالادانة، بل ادعى ان ذلك كان لصالح رجال الدين.

وعلى هذا كان رئيس الأساقفة في وضع صعب، متهم بعدد كبير من التهم، ومصاب بكثير من الاهانات، ومحروم من تأييد الأساقفة، فقام برفع الصليب الذي كان يحمله، وغادر قاعة المحكمة، وفي الليلة التالية ترك المدينة بشكل سري، وأخفى نفسه عن مشاهدة الناس خلال النهار، وارتحل أثناء الليل، وبعد سفر عدة أيام وصل إلى ميناء سندويش Sandwich ، ومن هناك عبر في قارب صغير إلى فلاندرز، وأرسل الملك بعد اختفاء رئيس الأساقفة رسلاً إلى البابا الاسكندر الثالث في سنس Sens.

وكان بين التعليمات التي حملها الرسل من الملك عرضاً إلى البابا أن بإمكانه أن يبعث بقاضيين إلى انكلترا، يتوليان بحضور من الملك ورئيس الأساقفة حل الخلاف اللاديني بين الملك ورئيس الأساقفة، الذي جرت مناقشته في نورثأمبتون، وايجاد حل لأي قضية يمكن أن تظهر أثناء سير المناقشات، وذلك بعد سحب الاستئناف، وعلى كلّ حال عندما وصل رسل الملك إلى قصر رئيس أساقفة سنس، لم يكن رئيس الأساقفة موجوداً، لذلك لم يستطع بلاطه اعطاء جواب حاسم لمطالبهم، حيث أن ماطلب لايتماشى مع القانون ولا مع العقل.

سنة خمس وستين ومائة وألف

وولدت آديلا ملكة فرنسا ولداً أطلق عليه اسم فيليب، وولدت إليانور ملكة انكلترا ابنة سميت جوانا، وعاد البابا الاسكندر إلى ايطاليا، ورحب به في روما.

وعندما كان الملك مقيماً في وستمنستر[القصر الملكي قرب لندن] جاء رينالد رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا ليتسلم ماتيلدا، كبرى بنات الملك هنري، لتكون زوجة لهنري، دوق ساكسوني(١٧)، وحدث أنه عندما جاء نبلاء المملكة في أبهة عظيمة لإستقباله واللقاء به، رفض روبرت إيرل أوف ليستر، ورئيس القضاء الملكي، أن يعانقه، على أساس أنه منشق عن الكنيسة، ثم قلبت جميع المذابح التي أقام عليها المنشق قداساً.

هرب بكت إلى البابا في سنس، وذهب من هناك إلى دير سسترشيان Cistercian في بونتغني Pontigny، وتبنى هناك طريقاً للحياة كرسه على العزلة والدراسة، وزار في أحد الشعانين ١١٦٦، عندما كان حاجاً، فيزلي، حيث تولى حرمان عدد من الأساقفة الانكليز كانوا يساندون الملك.

سنة ست وستين ومائة وألف

[بعث رئيس الأساقفة من منفاه رسالة إلى الملك جاء فيها:]

«من توماس رئيس أساقفة كانتربري إلى ملك انكلترا:

إنني أرغب رغبة عظيمة في رؤية وجهك والحديث معك، وذلك لصالحي، ولكن أكثر لصالحك، ذلك أنك برؤيتك لوجهي ستعيد إلى ذاكرتك الخدمات التي قدمتها لك، عندما كنت تحت طاعتك، لقد خدمتك باخلاص مرضياً ضميري، حتى —لعل الرب يساعدني في يوم الحساب— عندما يقف الجميع أمام حكمه ليتسلموا الثواب أو العقاب تبعاً لما عملوه عندما كانوا أحياء، ولابد أنك ستتحرك شفقة عليّ، أنا

الـذي توجب عليّ أن أعيش بمثـابة متسـول بين الأجانب، حتى في هـذا الحال —شكراً للرب— لدينا كثيراً من الخيرات والنعم».

ووضعت الملكة إليانور ولداً ذكراً سمته جون(١٨).

ودعا الكاردينالان: وليم أوف بافيـا، وجون أوف نابل —نائبا الملك— ملك انكلترا، ورئيس أساقفة كانتربري إلى الحضور معاً إلى مونت ميريل Montmirail, ومع أن رئيس الأسـاقفـة شعـر أنهما يميـلان أكثـر إلى جانب الملك، سمح بمعالجة القضية، وجلس الكـاردينالان جلسة علنية، وبذلك كـان من الممكن إعادة اعتبار كـاملة له شخصياً ولأتبـاعه وذلك وفقـاً للقانـون الـلاهوتي، لكن رئيس الأسـاقفـة المسلوب لم يـرغب في أن يتعرض للمحاكمة، ولم يكن من الممكن ارغامه بأي شكل من الأشكال، حيث أن النائبين اللذين لم يستطيعا ارغامه، ولم يرغبا بالقيام بذلك، عادا إلى البلاط البابوي مخفقين.

وجـاء الملك لـويس السـابع، ملك فرنسـا إلى بـونتغني، حيث أظهـر الرهبان كلّ لطف نحو رئيس الأسـاقفة توماس لمدة عامين، ومن أجل ألا تتعرض رهبـانية سسترشيان في انكلترا إلى أي أذى أخـذه معه إلى سنس، ودفع نفقاته لمدة أربع سنوات في دير القديس كولومب Colombe.

سنة سبع وستين ومائة وألف

تزوجت ماتيلدا ابنة الملك هنـري الثاني من هنري دوق ساكسوني، وقد رافقها إليه كلّ من إيرل آرندل وإيرل بمبروك وعدد كبير آخر.

وتخاصم ملكـا فرنسـا وانكلترا: وأحرق النورمـان كومـونت Chau-mont قـرب غيسـور Gisors وأسروا عـدداً كبيراً من الفـرسـان

والمدنيين، وانتقاماً لما حدث أحرق الملك الفرنسي أندل Andelys وهو بيت ريفي لرئيس أساقفة روان، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، بعدما خسر أكثر من ألف رجل أثناء السفر، ووقع بعد هذا عدد كبير من الفرسان الفرنسيين بأسر النورمان في بيرش Perche, ثم تصالح الملكان، وخطب رتشارد دوق أكوتين وابن الملك الانكليزي، إلى أليس الفرنسية، ابنة الملك.

سنة تسع وستين ومائة وألف

تزوجت إليانور ابنة ملك انكلترا من ألفونسو الثامن ملك كاستيل.

وعقد يوم ١٨ تشرين الثاني مؤتمر فيما بين الملك لويس السابع ملك فرنسا، والملك هنري الثاني ملك انكلترا، قرب باريس، حيث كان رئيس أساقفة كانتربري مقيماً، لكن توماس لم يقدم نفسه إلى ملك انكلترا، وكان هناك نقاش طويل حول إقامة سلام فيما بين الملك ورئيس الأساقفة، وبناء على نصيحة ملك فرنسا والأساقفة والنبلاء، زود ملك انكلترا بالتماس منه على شكل رسالة جاء فيها مايلي:

«نلتمس من مولانا الملك، بناء على نصيحة من البابا ورعاية، ومن أجل محبة الرب والبابا، وتشريفاً للكنيسة المقدسة، وفي سبيل نجاته ونجاة ولي عهده أن يتقبلنا ويشملنا برعايته وأن يعفو عنا وعن الذين معنا، والذين غادروا انكلترا من أجلنا، وأن يمنحنا سلامه مع الأمان الكامل منه ومن رجاله، بدون مشاعر رديئة، وأن يعيد كنيسة كانتربري إلينا حرة، وكاملة حسبما كانت بأيدينا بعدما صرت رئيساً للأساقفة، وأن يعيد جميع الممتلكات والمقتنيات التي كانت لنا، لنتملكها بشكل حر، ومجيد وسلام، وذلك مثلما كانت الكنيسة وكنا أنفسنا وامتلكنا عندما

رقينا إلى رئاسة الأسقفية، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة لأتباعنا، وعليه أيضاً أن يأذن لنا في استحواذ الكنائس العائدة لرئاسة الأساقفة، والتي غدت شاغرة بعدما تركنا البلاد، وبذلك يمكننا أن نفعل بها مانرغب به ويرضينا».

ولم يعط ملك انكلترا موافقة كاملة لسببين: بما أنه لم يطرد رئيس الأساقفة، هو لم يكن ملزماً —تماشياً مع سمعة المملكة— بتغيير أي شيء باسم اعادة الاعتبار، كما أنه لم يكن ملزماً بأن يعلن إلغاء تمليك الممتلكات الشاغرة، التي جرى منحها لبعض الأشخاص، لكن حتى يعبّر عن نفسه بأنه حاكم ملتزم بالقانون، أعلن أمام ملك فرنسا، أنه جاهز لإرضاء رئيس الأساقفة من جميع الجوانب، أو أنه إذا ما قرر مناقشة القضية، وعرضها للمحاكمة في القصر في باريس، بوجود نبلاء فرنسا هناك، أو بوجود الكنيسة الفرنسية واستخدامها لنفوذها، أو بوجود علماء من مختلف المناطق، يتولون فحص الأعمال بشكل عادل.

وهكذا تمكن ملك انكلترا، الذي أثار من قبل كراهية عدد كبير من الناس ضده، بوساطة هذه الكلمات أن يكسب الكثيرين إلى جانبه، وبهذه الواسطة كان من الممكن لملك انكلترا ولرئيس الأساقفة الوصول إلى نوع من الاتفاق، وذلك إذا مارفض الملك رفضاً تاماً إعطاء رئيس الأساقفة قبلة السلام.

سنة سبعين ومائة وألف

عقد الملك يوم عيد الميلاد بلاطه في بلدة نينتس Nentes, بحضور الأساقفة والبارونات لجميع بلاد بريطانيا، وقد أقسم هؤلاء يمين الولاء له ولابنه غيوفري معاً، وعاد في أيام الصيام إلى انكلترا، وعندما

تعرض عدد كبير من حاشيته لمخاطر عاصفة بحرية هبت بشكل مفاجيء، نجا هو نفسه منها دون أن يصاب بأذى بفضل نعمة التقوى للرب.

وفي أثناء غياب بكت عن انكلترا، قرر هنري الثاني استخدام رئيس أساقفة يورك لتتويج ابنه الملك الشاب، وبهذا أعاد الخلاف الطويل بين رئيسي الأساقفة الانكليزيين حول الريادة.

وجرى في ١٤ حزيران رسم هنري، أول أولاد الملك هنري، ملك انكلترا، ولادة، ملكاً، وكان ذلك في وستمنستر، من قبل روجر رئيس أساقفة يورك.

وعبر الملك القناة، بعد تتويج ابنه، وعقد مؤتمراً في مونتميريل بينه وبين رئيس الأساقفة توماس، حيث كان ملك فرنسا حاضراً، لكن بعد جهود كبيرة، عندما جاءت ساعة العناق، ولأن رئيس الأساقفة قال: «إنني أقبلك تمجيداً للرب»، رفض الملك القبلة لأنها عرضت مشروطة، فلأن أجدادنا اعتادوا أن يولوا اهتماماً عظيماً للصيغ في القانون، هكذا اعتاد الملك على التمسك بنهايات بعض العبارات في كلمات رئيس الأساقفة، مع أنه تلفظها بضمير نقي، مثل أن تقول أحياناً: «حافظاً أمري» وأحياناً: «حافظاً مجد الرب» وأحياناً أخرى: «حافظاً إيمان الرب».

والتقى ملك فرنسا ووليم رئيس أساقفة سنس، وأسقف نافار Nevers ثانية في فرتفال Freteval, وعندها —على كلّ حال— تفارق ملك انكلترا ورئيس الأساقفة مرتين، وترجلا مرتين، ومرتين امتطيا فرسيهما، وأمسك الملك مرتين بالركاب لرئيس الأساقفة، ثم حدث لقاء آخر في أمبويز Amboise للوصول بسرعة لتفاهم أسهل، وهنا توصل الملك ورئيس الأساقفة إلى اتفاق، وتدبر هذه المرة السلام بينهما

روترو رئيس أساقفة روان [الذي كتب]:

«إلى هنري ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري ملك انكلترا، التحيات.

هل لك أن تعلم أن توماس، رئيس أساقفة كانتربري، قد أقام سلاماً معي، وفقاً لرغباتي، وبناء عليه إنني آمر أن يستطيع هو وأتباعه امتلاك سلام، وأن تنظر أنت إلى ذلك وترعاه، وفي أن يحصل هو وأتباعه الذين غادروا انكلترا من أجله، على مقتنياتهم بسلام وشرف، وأن يكون الحال مثلما كانوا عليه قبل ثلاثة أشهر من مغادرتهم انكلترا، واستدع إليك بعضاً من خيرة الفرسان ذوي الشرف في سولتوود Saltwood, وعليك —اعتماداً على أيمانهم— أن تقوم بالبحث بشأن تقرير اقطاع رئيس أساقفة كانتربري هناك، واعمل مايلزم لتتأكد من حصول رئيس الأساقفة على اعتراف به كجزء من اقطاعه.

الشهود: رئيس الأساقفة روترو أوف روان، في شينون».

وبناء على هذه الضمانة عاد رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ورسا في ميناء سندويش في الأول من كانون الأول .

وبعدما عاد توماس رئيس أساقفة كانتربري، وإثر دخوله إلى انكلترا، كتب رسالة إلى البابا، جاء في بعضها مايلي:

«....بعد وصولنا إلى كنيستنا، واستقبالنا بمحبة عظيمة من قبل رجال الدين والشعب، جاء إلينا عدد من الرسميين التابعين للملك وهم غاضبين، وقد طلبوا بناء على رغبة الملك ولصالحه أن نقوم بتحليل الأساقفة الذين كان قد جرى حرمانهم، أو جمدوا، لأن ماصنع ضدهم تنامى ليصل إلى العدالة على أنه ضد الملك، وقد أزاح جانباً عادات المملكة وقلبها... وقد أجبناهم: إذا مارغب أسقفا لندن وسالسبري أن يقسما أمامنا أنهما سيطيعان أمرنا، إننا سنحللهما من أجل سلام الكنيسة وصدوراً عن احترام الملك، وعندما حملت هذه الاجابة إلى الأسقفين،

أجابا أن قسماً من هذا النوع لاينبغي تأديته إلا إذا توافق مع رغبات الملك»!.

وبينما كان توماس، رئيس أساقفة كانتربري في طريقه لزيارة الملك الشاب هنري، الذي كان في ذلك الوقت مقيماً في وودستوك، جرى استقباله بحفاوة كبيرة من قبل سكان لندن، وفي يوم ١٨ كانون الأول، عندما كان ضيفاً في ساوثوورك Southwark, وصل رسل من عند الملك الشاب إليه، محظرين عليه، بناء على أوامر الملك، أن يذهب إلى رؤيته، وبناء عليه، وعوضاً عن الذهاب، عاد إلى كنيسته، وهكذا رجع إلى كانتربري، وأعدّ العدة للاحتفال بعيد الميلاد هناك، وذلك بوجود عدد كبير من رجال الدين جاءوا من مختلف المناطق، للاجتماع هناك في سبيل معالجة عدد من مختلف الأعمال.

وفي يوم الميلاد صعد توماس —رئيس أساقفة كانتربري المنبر— ليتولى أداء موعظة للشعب، وعندما انتهى، وقام بالصلوات المعتادة للرب، وللبابا، وللملك، ولخلاص الشعب، وفيما الشموع مضاءة، قام بكل وقار بحرمان نيغل دي ساكفيل Nigel de Sackville, وهو ظالم عنيف لكنيسة هاردرز Hardres وكاهن الكنيسة نفسها، وحرم أيضاً روبرت دي بروك الذي شوه فرساً من خيول رئيس الأساقفة نفسه كان يحمل طعاماً، وذلك بهدف الاهانة والحط من القدر.

وفي اليوم الخامس من أيام عيد الميلاد، عند حلول الظلام، وفيما رئيس الأساقفة مقيم في جناحه، ومعه أعوانه، حمل الغضب الشديد وليم دي تريسي Traci, ورينالد فتزأورسن Fitzursen, وهيوج دي مورفيل Moreville, ورتشارد برتو Brito وكان هؤلاء فرساناً أربعة جاءوا من نورماندي، حملهم الغضب على اقتحام الجناح، وهددوا باسم الملك، الذي كان مقيماً في نورماندي، وطالبوا بأن على رئيس الأساقفة أن يعيد الأساقفة الانكليز المجمدين إلى مراكزهم، وأن يحلل

المحرومين، فأجابهم: إنه ليس من صلاحية القاضي الأدنى إلغاء حكم الأعلى، ولايمكن لأي انسان أن يؤثر بما رسم به الكرسي المقدس، ومهما يكن الحال، إذا ماأقسم أسقفا لندن وسالسبري أنهما سوف يطيعان أوامره، سوف يحللهما من أجل سلام الكنيسة، ومن خلال الاحترام للملك، واستبد بهم الغضب الشديد، واربدت وجوههم، وبادروا نحو تنفيذ الجريمة النكراء التي دبروها،ومن أجل تنفيذها انسحبوا مسرعين.

ودخل رئيس الأساقفة إلى قلب الكنيسة، وذلك على الرغم من تحذير أعوانه،وكان الوقت قد قارب ساعة انشاد قداس العشاء، وهكذا تبع الرجال المتقدم ذكرهم، والعازمين على تنفيذ الجريمة خطوات رئيس الأساقفة، بعدما سلحوا أنفسهم، وعندما وصلوا إلى الكنيسة وجدوا أبوابها مفتوحة، تماشياً مع تعليمات رئيس الأساقفة التي قال فيها:

«نحن سوف لن نحوّل كنيسة الرب إلى قلعة، إنها ينبغي أن تبقى ملاذاً عالمياً في الأيام التي أطيح بها بالنظام فحلت الفوضى»، وفيما الحركة تغطي كلّ الجوانب، دخل الأربعة بوقاحة إلى الكنيسة، وبدأوا يصرخون: «أين الخائن للملك؟ أين رئيس الأساقفة»؟ وعندما سمع رئيس الأساقفة ذكر اسمه، نزل من الدرجة الثالثة أو الرابعة للمنصة لمقابلتهم، وكان لتوه قد بدأ يصعد إلى المنصة، وقال: «إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، إنني هنا»، ورد على أجوبتهم الخشنة: «أنا مستعد للموت، إنني أفضل تأكيد العدالة، وحرية الكنيسة، على حياتي، وأعلن أن أتباعي ليسوا مسؤولين ليكونوا عرضة للعقوبة، ذلك أنهم لم يكونوا المثيرين للحالة» وعندما اندفع منفذوا الجريمة نحوه بسيوف مشهرة، قال: «إنني أعهد بنفسي وبشؤون الكنيسة إلى مريم المباركة، حامية قديسي هذه الكنيسة، وإلى دايونيسيوس المبارك»(١٩).

وفي أيام حياة بكت قدم وليم فتزستيفن صورة رفيعة التلوين وصف بها مقتل رئيس الأساقفة من قبل الفرسان الأربعة.

وضربه أحد الفرسان بسطح سيفه بين كفيه، وهو يقول: «طر، إنك رجل ميت»، غير أن رئيس الأساقفة وقف دونما حراك وقدم رقبته [للقطع]، وأوقف نفسه وكرسها للرب، بينما كانت شفتاه ترددان أسماء رؤساء الأساقفة المقدسين الذين استشهدوا قبله، وصرخ واحد من الأعداء قائلاً: «أنت أسيرنا، تعال معنا» ووضعوا أيديهم عليه وأرادوا جره إلى خارج الكنيسة، ولكنهم كانوا يخشون أن الناس قد يتولون انقاذه من بين أيديهم، وأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «لن أتحرك من هاهنا، عليكم هنا اتمام عملكم وتنفيذ رغباتكم واطاعة أوامركم»، واصطرع معهم بقوة وارادة، وذلك بينما أمسك به الرهبان وردوه أيضاً إلى الخلف، وكان معهم أيضاً السيد ادوارد غرم Grim, وقد صب عليه سلاحه [ليصد الضربات]، ولقد تلقى أول ضربة بالسيف وجهها وليم دي تريسي نحو رأس رئيس الأساقفة، وجرح بهذه الضربة جراحة كبيرة رئيس الأساقفة في رأسه أثناء انحنائه نحو الأمام، وكذلك أصيب غرم اصابة بالغة.

ومسح رئيس الأساقفة بذراعه الدم الذي تدفق من رأسه، وقدم الشكر للرب قائلاً: «بين يديك، أضع أيها الرب روحي»، ولقد قال ذلك بعدما ركع، وكان يصفق بيديه، ويمدّهما نحو الرب، وتلقى ضربة ثانية على رأسه، سقط على إثرها منكباً على وجهه، إلى جانب المذبح الذي كان هناك، وكان مكرساً للقديس بندكت، ولقد اعتنى به ومنحه —على كلّ حال— النعمة في أن سقط بشكل مجيد، مغطى حتى عقبيه بردائه، وكأنه كان يصلي ويتعبد، ولقد سقط على الجانب الأيمن، وكأنه يتقدم نحو اليد اليمنى للرب، وفيما هو ممدد من اثر الضربة، ضربه رتشارد بريتو ضربة شديدة إلى حد أن السيف تحطم أمام الرأس وبلاط الكنيسة، وكان يردد حين ضربه: «خذ هذه الضربة من أجل حبي لمولاي وليم،

أخـو الملك» [الـذي حـرم تومـاس زواجـه من الكـونتسـة وورين Wa-renne] لقـد أصيب رئيس الأسـاقفـة المقـدس بأربع اصـابـات، تلقاهـا جميعاً على رأسه، وكانت كـلّ واحدة منها مميتة، فقـد فصل غطاء الرأس عن الجمجمة، ثم تمت مشاهدة كيف أن أطـرافه أطاعت حركات روحه، وظهر واضحـاً أنِ ماكان يدور في عقلـه، اختلج في جسده، وأنه في تصـديه للضربـات وفي محاولـة تجنبه لها لم يكـن يصارع ضـد الموت، بل تقبل الموت عن طـواعية، ولـرغبتـه في أن يكـون مع الرب، وليس نتيجـة ضربات قـاتلة مـن سيوف الفرسـان، ووضع واحـد اسمه هيـوج هورسي Horsea ولقبـه موكـلارك Mauclerk قدمـه على رقبة الشهيـــد الممـدد، وأخرج بـرأس سيفـه الدم والـدمـاغ من قحف الرأس المقطـوع، وكان هـذا مشهداً محزنـاً مرعبـاً، لم يسمع بمثله من حيث الـوحشية، من جـانب الذين يـدعون المسيحيين، وهبت عـاصفة مخيفـة تعلقت غيومهـا بقبة السماء، وهطل مطر سريع، وكانت هنـاك رعود تزمجر حول السموات، وتحول بعد هـذا لون السماء إلى أحمر قـانيء تجاوباً مع الـدم الذي سفك، وتعبيراً عن الرعب والغضب.

وتحدث ديسيتو عن الأحـداث التي تلت مقتل بكت، وهو وإن كتب بطريقة أقل إثـارة من طريقة فتزستيفن، كـان الغضب الشديد تجاه مقتل رئيس الأساقفة مايزال واضحاً.

ونهب روبـرت دي بـروك مـع أصحـابـه ممتلكـات رئيس الأســاقفـة، واستولوا على ثياب رجال الدين والخدم، لابل حتى استولوا على الأدوات من أيدي العمال، وهـربوا بسرعة كبيرة ومعهم جميع الخيول التي وجـدوها في الاسطبلات، وعدّوها بين الأسلاب.

وحمل جسد رئيس الأساقفـة الغارق في البلاط على الجانب الأيمن من مـذبح القديس بنـدكت، ووضع أمـام المذبح الـرئيسي، وكان ذلك عنـد الغسق، وهناك بـات ماكان معـروفاً فقط من قبل حاجبـه واضحاً لجميع

الحضور، ذلك أنه صحيح أن رئيس الأساقفة أخفى بهدوء ثوبه الرهباني، الذي ارتداه لزمن طويل، بتغطيته بردائه الرسمي، اهتم أيضاً في تطويع جسده بارتداء ثياب داخلية مصنوعة من الشعر، وكان اليوم التالي هو يوم الأربعاء، وراجت في الصباح الباكر لهذا اليوم اشاعة شريرة، تأكدت فيما بعد، بأن المجرمين الأشرار الذين نفذوا جريمة القتل قد تآمروا على أن يجروا جسد رئيس الأساقفة ويخرجوه من المكان المقدس، وأن يرموه خارج أسوار المدينة ليمزق من قبل الكلاب، أو من قبل الطيور، ولذلك قرر راعي دير بوكسلي ورئيس وأعضاء دير كنيسة كانتربري قراراً حكيماً، في أن يقوموا بدفن الجثة وإن كان الوقت متأخراً، وبدا لهم أنه لاتوجد حاجة لغسله بالماء، خاصة وأنه كان نال النقاء بسبب التقشف الطويل لرئيس الأساقفة، لهذا مسح بقطعة من القماش الشعري، وقد تطهر بدمه نفسه.

سنة إحدى وسبعين ومائة وألف

كان الملك هنري ملك انكلترا في تلك الآونة مقيماً في نورماندي، في أرغنتان Argentan, عندما حمل بعض الناس إلى مسامعه الاشاعات المؤسفة، انقلب فوراً إثر سماعه للقصة الشريرة، إلى جميع أنواع البكاء وضروب التعاسة، وبدل ثيابه الملكية تبديلاً كاملاً ولبس الأثمال ووضع على رأسه الرماد، داعياً الرب القدير ليكون شاهداً لصالح نفسه، أن الفعلة الشريرة لم تنفذ بارادة منه، ولابعلم منه، كما أنها لم تكن واردة في مخططاته، مالم يكن قد أذنب في اعطاء الشعور أنه حمل قليلاً من الحب لرئيس الأساقفة حتى ذلك الوقت، وعلى رأس هذا كله وضع نفسه مباشرة أمام عدالة الكنيسة، ووعد بكل تواضع في أن ينفذ كلّ ما سوف

تقرره.

وأرسل الملك رسلاً إلى البابا للدفاع عنه، وليبرهنوا على براءته، ولم يرغب البابا في رؤيتهم، كما أنه لم يعانقهم، كما لم يسمح لهم بالركوع أمام قدميه، وحاول الرسل ثانية، فاستقبلهم بعض الكرادلة، لكن فقط للتحدث إليهم، ولهذا سقطوا في لجة من الفوضى لوقت طويل، وشعروا لذلك بالحزن وتدني المعنويات، لكنهم تابعوا تزويد الذين كانوا أكثر مواءمة بشكل مستمر، حتى يمكن بوساطة تدخلهم أن يقبل البابا بإعطاء بعضهم فرصة اللقاء به، غير أنهم لم يتقدموا في هذا المجال مطلقاً، واقترب حلول يوم الأربعاء المتقدم على عيد الفصح، الذي اعتاد فيه البابا، تبعاً لعادات الكنيسة الرومانية، إما أن يعلن عن حرمان عام أو تحليل من حرمان، ووصل إلى مسامعهم عن طريق بعض العاملين لدى البابا، أن البابا قرر بلا تراجع أن يفرض عقوبة الحرمان ضد ملك انكلترا بالاسم وضد جميع أراضيه على طرفي القنال.

وعندما حل ذلك اليوم حرم البابا بشكل عام القتلة الشريرين جداً الذين ذبحوا رئيس أساقفة كانتربري مع جميع الذين زودوهم بالمساعدة أو بالرضى، والذين يمكن أن يقدموا المساعدة لإيوائهم، ومع هذا بقي القتلة في نيرسبرا Knaresborough في مقاطعة نورثأمبريا North-umbria لمدة سنة.

وبدأ في حوالي عيد الفصح المولى يسوع المسيح، الموجود دوماً في قديسيه وفي كلّ مكان، يشع بشكل اعجازي على الحياة الجديرة بالمدح لشهيده الأعظم روعة، وأعني به توماس رئيس أساقفة كانتربري، ويشع أيضاً على ثباته الذي لانظير له في وجه الموت، وتجلى هذا بوساطة معجزات متوالية، وبذلك نجد أن الذي أوقف نفسه ونفوس أتباعه، وعاش مع الحرمان في سبيل حماية حرية الكنيسة المهددة، ينبغي أن يُعترف أنه قد حاز على نصر جدير بالتقدير.

وفي ٦آب وصل الملك الكبير إلى انكلترا، وكـان أثنـاء سفـره قـد زار هنري أوف بليـوس أسقف ونشستر، الـذي كان على فـراش الموت، ووجه هذا الأسقف النقـد واللوم إلى الملك بشأن وفـاة الشهيد الرائع، وتـوقع له أن يعاني كثيراً بسبب ذلك الموت، ومـات هذا الأسقف العجـوز، بعد أن اكتملت أيامه، في يوم ٨آب.

سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف

سمع في ليلـة عيـد الميـلاد رعد في ايـرلنـدا وانكلترا، وفي جميع أرجـاء فرنسا، وكان مفاجئاً وشديداً، منذراً بوقوع شيء جديد وغير اعتيادي.

ومنذ أن وصل الملك إلى ايـرلندا حيث نـزل إليها مع جيش في تشرين الثاني ١١٧١، ولمدة تقـارب العشرين أسبوعاً، لم يصل إليه ولا تقـرير من مملكته أو أي جزء من ممتلكـاته التي كانت واسعة جداً وعـريضة، والذي حال دون الوصول إليه وجود رياح مضادة مستمرة.

وبينما كـان الملك متأخـراً في ايـرلنـدا، بـدأ هيـوج أوف سينت مـور ورالف دي فيّ Fayes, وهـو عم الملكـة إليـانـور، في حـرف عقل الملك الشاب، وابعاده عـن أبيه، وقد قيل كان هذا بنـاء على نصيحة من الملكـة، وقـالا لـه: إنه لمن الـواضح أنـه من غير الـلائق أن تكـون ملكـاً ولاتمارس حكم المملكة.

وأصيب كثير من رجال جيش الملك هنـري الثاني في ايرلندا بـالاسهال في المعـدة، بسبب أكلهم لحماً جـديـداً وشربهم الماء، وهـو أمـر لم يعتـادوا عليه من قبل، ثم إنهم عانوا من نقص بالخبز.

وعنـدمـا فهم سكـان ايرلنـدا تمام الفهم كيف أن نـوايـا ملك انكلترا

تتعلق بالكامل في تأسيس السلم والحفاظ عليه، وأنه لم يشجع على الجريمة بالتورط بها، كما أنه لم يسرع قط بإصدار الحكم على أحد بالاعدام، عند هذا وعندما جمعهم بمرسوم صادر عنه التقوا به للبحث حول السلم، لأنه لم يكن هناك مؤسسات شعبية بينهم ولاسلطات قائمة يمكنها أن تمنحهم الأمان، من خلال الخوف من العقوبة، ولأنهم عانوا مراراً من قتل آبائهم لبعضهم بعضاً في حروب أهلية، فقاموا بنقل شؤون العدالة والسلطة بينهم إليه وفيه، وهكذا حصلوا على السلم بسبب الملك.

ونظراً لأن العديد من القضايا المختلفة استدعت وجود الملك، ركب هنري ظهر سفينة عند حلول الظلام، ووصل في اليوم التالي إلى ويلز، ورسا على مقربة من سينت ديفد، وذهب من هناك مباشرة إلى بورتشستر دون أن يلتفت إلى اليمين أو إلى اليسار، وكأنه بريد مستعجل، وهنا صعد إلى أحد المراكب، وقال وداعاً لانكلترا، وبعد عبور لطيف وصل إلى نورماندي، وعندما وصلت أخبار قدومه إلى مسامع ملك فرنسا، قال مندهشاً:

«في ساعة ملك انكلترا موجود في ايرلندا وفي ساعة ثانية هو في انكلترا، وفي ساعة تالية هو في نورماندي، لابد أنه طار ولم يسافر بواسطة فرس أو سفينة».

وعندما وصل هنري إلى نورماندي بادر على الفور إلى زيارة ألبرت وثيودين، وهما كاردينالان وممثلان للبابا، وبعد مناقشات ومباحثات طويلة، أولاً في سيفني Savigny ثم في أفرانشز Avranches, أقسم الملك بحضور المندوبين أن موت الشهيد الرائع توماس لم يتم الإعداد له بالتوافق مع رغباته، ولابمعرفته، ولم ينفذ بوساطة خططه، ولكن بما أن المجرمين اغتنموا فرصة قتل الرجل المقدس بسبب كلمات تلفظها بدون انتباه عندما كان غاضباً بشدة، فإنه طلب بكل تواضع

التحليل منهما، وقد منح ماطلبه، وعلى هذا بات هو في نظر الكنيسة قد حظي بالتحليل الكامل، ووعد، بناء على رغبات الكاردينالين وأمرهما، أنه سيدفع ابتداء من حلول الصوم وكلّ سنة مبلغاً من المال يكفي بتقدير فرسان الداوية للدفع إلى مائتي فارس للدفاع عن أراضي القدس لمدة سنة.

ووعد أن دعاوى الاستئنافات يمكن القيام بها بكل حرية، وأن الممارسات التي فرضها حكمه ضد حرية الكنيسة سوف تزال، وسيتم بالكامل رد جميع الممتلكات العائدة إلى كنيسة كانتربري، تلك الممتلكات التي نقلت بعد مغادرة رئيس الأساقفة صاحب الذكرى المقدسة، كما سيسمح لرجال الدين وسواهم من كلا الجنسين، الذين غادروا المملكة تعاضداً مع توماس بالعودة بسلام من الملك وأن يستلموا جميع مقتنياتهم، ولوعوده هذه ولتنفيذه إياها، منح البابا الملك غفراناً من ذنوبه، وقام الملك هنري الشاب ابن هنري الثاني بإقسام اليمين والوعد مثلما فعل أبوه.

ووصل في آب التالي الملك الشاب وزوجته مرغريت، ابنة لويس ملك فرنسا، إلى انكلترا، وتوج رئيس الأساقفة مرغريت ملكة على انكلترا في ٢١آب، في ونشستر، ووضع التاج الملكي على رأس الملك الشاب مع أسقف افروكس Evreux وكان يتلو معه القداس وكذلك فعل الأساقفة المساعدون العائدين لكنيسة كانتربري.

وبناء على طلب ملك فرنسا ورغباته، جرى منع حضور التتويج على رئيس أساقفة يورك، وأسقفي لندن وسالسبري [لأنهم تولوا تتويج الملك الشاب أثناء غياب بكت عام ١١٧٠]، كما حظر عليهم اعاقة التتويج بأية طريقة من الطرق.

سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف

وخطب هنري الثاني، ملك انكلترا، لابنـه جون المدعو Laukland [لأنه لم يعط شيئاً عندما وزع هنري الثاني ممتلكاته في ١١٦٩] الذي كان في السـابعـة من عمـره، الابنـة الكبرى لـ «همبرت Humbert» كونت مورين، التي ولدتها له أرملـة الدوق هنري صاحب سكسوني، وبما أن هـذا الكونت لم يكن لـديه أمل بـالحصول على ولـد ذكر جـرى وضع أربعـة من قـلاعـه، المشهـورة بأنها أفضل القـلاع التي حصنهـا البشر أو الطبيعة تحت وصاية الملك، وذلك بناء على رغبته.

وبناء على نصائح شريرة قـام الملك هنري ابن الملك، بالتخلي عن أبيه فغادر أرغنتـان Argentan ليلاً، ولم يعلـم عبيد والده الـذين تـولوا خدمته شيئاً حول ماحدث، وهكذا ذهب في ٢٣آذار عبر مورتان Mor-tagne —وهي قلعـة عـائدة إلى ثيوبـولـد كونـت بورش— إلى ختنـه الملك لـويس ملك فـرنسا، وكـان والـده في تلك الليلـة نائماً في ألنكـون Alencon وقـد أوقظ وأخبر بفرار ابنـه، فقـام على الفور بـامتطاء ظهـر فرسـه، وسار ومعه عـدد قليل من أتباعـه، على طول الحدود، حيث وضع قلاعه في حـالة الدفاع، ومع تغييره لعدد من المطايـا وصل عند الفجر إلى غيسور Gisors التي كان الملك لويس قد أعطاها إلى الملك الشاب بائنـة [دوطة] عن ابنته مـرغريت، واختـار رتشارد دوق أكوتين وغيـوفري دوق بـريتـاني، وهما الابنان الأصغـر للملك، أن يلتحقـا بأخيهما بـدلاً من أبيهما، وقيل كان هـذا لاتباعهما نصيحة أمهما إليانور، وبـات هناك في كلّ مكـان تآمـر، ونهب، وحـرق، وإذا ماأخـذنـا النذر من المواسم، نجـد أن الابن حمل السلاح ضد أبيه في الوقت الـذي كان فيه المسيحيون يلقون في كلّ مكـان أسلحتهم، احترامـاً لعيـد الفصـح، وشقـاقـاً من هـذا النـوع لايمكن أن ينتهي بسعادة(٢٠٥).

وجاء مـائة وأربعون فلمنكياً إلى قـرب باسي Passy وأغاروا على نورمانـدي باستخدامهم لأحد الجسور، وامتلأ المكـان على الفور بأصوات الأبـواق، وبصراخ النـاس، وبالـرجـال المسلحين يـركضون هنـا وهنـاك، وجعلت المقاومـة النورمانديـة الشجاعة الفلمنكيين يفكرون بـالانسحاب بأقصى سرعة ممكنـة، لكن الجسر الذي عبروا عليـه كان قد جـرى تدميره من قبل إحدى النسـاء الصغيرات، وكان الماء عميقاً في طـريق تراجعهم، وقد اندفعوا نحو الماء فغرقوا جميعاً، وعندما سمع ملك فرنسا بهذا قال:

«إن عناصر الطبيعة إلى جانـب النورمان، فعندما غزوت أنـا نورماندي آخر مـرة مات جـزء كبير من جيشي عطشاً، ويمكننـا اليوم أن نشكـو من كثرة الماء».

وأرسلت رسائل من الملك الكبير ومن الكـردناليين إلى انكلترا في ٦ تموز تحث على العمل من أجل كنيسـة كـانتربري، وعنـدمـا اجتمع الأساقفـة للتداول حـول هذا، قام أودو رئيس كـاتدرائية كـانتربري مع الجزء الأكبر من الديـر باصرار منـذ البدايـة في طرح رأي لم يسمع به مـن قبل، في أنه يتوجب اختيار رئيس الأسـاقفة من قبل جماعتهم، وأن يعلن اسمه بشكل عـام من قبلهم، وحيث أن هنري الثـاني كان آنـذاك مهتماً عظيم الاهتمام في أن يكون الانتخاب بدون اضطـراب، جرى اختيار اثنين من بين العدد الكبير للرهبـان وهما: أودو رئيس ديـر كانتربري ورتشـارد رئيس ديـر دوفر، وعندما قـدمهما الرهبان إلى الأساقفة، كانت كلّ رهبـانية تأمل في انتخاب رئيسهـا، وقام غلبرت أسقف لنـدن قبلهم جميعـاً وصب كثيراً من المديح على الرئيس أودو، ثم نـزل باتفـاق مع الأساقفـة ووقف في الجانب الآخر قائلاً: «لقـد انتخبنا الرئيس رتشارد»، وحـدث هذا كله في بيعة القـديسة كاترين بحضور قاضي الملك وبمـوافقة منه، وجرى بشكل علني في اليوم نفسه الذي انعقد فيه المجلس لانتخاب رئيـس أساقفة لكانتربري، تلاوة الرسالة التالية التي وصلت من البابا:

«من البابا الاسكندر، إلى اخوانه المحترمين رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وإلى أبنائه مطارنة الكنائس الأخرى، وإلى جميع رجال الدين مع شعب انكلترا، تحيات ومباركات رسولية.

نشرت انكلترا شذى ومحاسن المعجزات التي عملها الرب القدير خلال فضائل توماس المقدس والمبجل، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، ولقد أشعت حياته بمجد عظيم جداً، وقد ختمت أخيراً بالمعركة الرائعة للشهادة، ومامن واحد يسمع عن حياته التي هي موضع الاعجاب، ويقدر آلامه الرائعة، يمكنه أن يمتلك أدنى شك حول قداسته، ولإخبارنا بشكل مستمر من قبل جميع المؤمنين بأخبار المعجزات العظيمة التي لاتعد، والتي جرت من خلال فضائله، وتماشياً مع شهادات التقدير لكثيرين، نقرر هنا بكل إجلال، أمام المجمع الديني العظيم الذي ضم رجال الدين وغير الدين «تطويب» رئيس الأساقفة السالف الذكر، ورسمنا بادراج اسمه في جدول أسماء القديسين، وبناء عليه إننا ننصح، ونأمر من خلال سلطاتنا جميعكم أن تحتفلوا بوقار بعيد الشهيد الرائع السالف الذكر كلّ سنة في يوم آلامه.

صدر في سغني Segni, ١٣-آذار».

وما ان انتهت قراءة الرسالة حتى رفع الذين كانوا هناك أصواتهم بمديح الشهيد، والانتصار لصراعه الرائع، وأنشدوا: «الحمد للرب».

وبناء على تحريض من لويس ملك فرنسا ضم الملك الشاب إلى جانبه فيليب كونت فلاندرز وأخيه ماثيو كونت بولون، وقد كسبهما بوساطة وعود سخية، وحشدوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين فور الدعوة إلى ذلك وبأقصى سرعة ممكنة، وذلك للوقوف في وجه المقاومة الصادرة عن النبلاء الفلمنكيين، وهاجموا نورماندي في أبهة عظيمة، وجرى الاستيلاء على قلعة أوميل Aumale بسرعة كبيرة، وكان ذلك على حساب

سوء سمعة عدد من الناس، ثم شرعوا بحصار درنكورت Drincourt وهي قلعة جيدة التحصين، وكانت بأيدي نخبة من الفرسان، وجرى اقتحامها أيضاً، ثم وضعت تحت الحراسة، ثم تابعوا من هناك زحفهم نحو قلعة أركوي Arques وأصيب كونت بولون بجراحة قاتلة من قبل أحد المرتزقة، وحدث ذلك يوم عيد القديس جيمس ٢٥تموز، وكان الكونت فيليب راغباً بالعودة السريعة، ولقد كان بإمكانه وقتذاك العودة إلى بلده وهو فرح بالنصر، لولا أن ذلك العمل الخياني عتم على نجاحه، ولولا حدوث وفاة أخيه، التي وقعت بعد وقت قصير، مما أكد عدم تأكده من نتائج الحرب، ولهذا عاد من خلال منطقة ايو Eu التي كانت تحت الاشراف الكامل للملك الشاب.

وما أن سمع الملك هنري بأن فيليب كونت فلاندرز قد غادر نورماندي، حتى بادر على الفور إلى حشد جيش كبير قدر المستطاع، وقدّر انه إذا ماالتقى بملك فرنسا داخل حدود نورماندي يستطيع أن يشتبك معه في معركة.

ولدى سماع ملك فرنسا بهذا، ولمعرفته أن ملك انكلترا كان قوياً جداً، ويحمل مشاعر مريرة نحوه، مثله مثل دب سرقت جرائه، فأخذ يجول في الغابة وهو يزمجر غضباً، قرر أن أفضل طريق عملي ينتهجه من أجل رجاله ومن أجل نفسه، هو الفرار، وبناء عليه امتطى فرساً سريعاً، وتراجع منسحباً بالسرعة القصوى نحو فرنسا، وتركت الأثقال العائدة للفرنسيين لتنهب من قبل المحاصرين، والنورمان الآخرين الذين وصلوا إلى هناك، ونهبت في يوم ٩آب جميع المؤن والأطعمة التي جرى جلبها للجيش الفرنسي على ظهر الشاحنات والعربات وخيول التحميل من قبل المرتزقة البرابانكونيين Brabancon.

وطالب وليم ملك اسكوتلندا بأنه يتوجب على هنري الثاني أن يعيد إليه الممتلكات الموجودة في نورثأمبرلاند Northamberland التي

كـانت أعطية إلى جـده الملك داود، فهذامـؤكـد له بـوثيقة رسميـة، وهي الممتلكـات التي بالـواقع احتلها داود لعـدة سنوات، لكن مطلبـه رفض، ولـذلك جمع جيشـاً مـن الأعـداد الكبيرة للغـالـويين Galwegians وجعله تحت تصرفـه، وكان سـلاح هؤلاء خفيفـاً، وكانـوا رجالاً يتمتعـون بـالرشـاقة، يمكن تمييـزهم بسهـولة بـرؤوسهم الصلعاء، وكـانوا يحملـون سكـاكين على الجانب الأيسر،كـافية لإخـافـة أي جنـدي، كما أنهم كانـوا راغبين في رمي الرمـاح إلى مسافات طـويلة، واعتادوا على أن يـرفعوا رمحاً طـويلاً اشـارة على أنهم زاحفين نحو المعـركة، واستحـوذ الملك وليم على جواز آمن خلال ممتلكـات هيوج أسقف درم Durham وبدأ يعيث فساداً في انكلترا، ملقيـاً النار في المدن، ومستـولياً على كمْيـات هائلـة من الأسـلاب، وآخـذاً النســاء أسرى، ومـمـزقـاً الأطفـال نصـف أحيـاء بعـد اخراجهـم من بطون أمهـاتهم، وبغية ايقـاف هذه الفظـائع ومنعها، حمل النبـلاء الانكليـز السـلاح بـالسرعـة القصـوى، وأرغمـوا على الفـور ملك السكـوتلنديين على الفـرار، والانسحاب إلى اسكـوتلنـدا، وساروا في إثـره فدمروا بالنار جميع لوثيان Lothian وكل شيء وجد خارج أسوار المدينــة وقع في أيــدي الانكليــز كأســلاب، وبنــاء على طلب ملك السكوتلنـديين جرى عقـد هدنة حتى ١٣كـانون الثـاني [١١٧٤]، وعاد النبلاء الانكليز منتصرين.

سنة أربع وسبعين ومائة وألف

قام الملك الشاب وبصحبته ثيوبولد كونت بيرشي Perche وكونت ألنكون Alencon ومعهم حوالي الخمسين فارساً، بمهاجمة مدينة سيز Sees ولكن الذي حدث أنه مع أن سكان المدينة لم يكن لديهم أمير أو قائد، قاوموا بشجاعة، وهكذا لم يتم تحصيل شيء.

وخشية من هنري الثاني من أن يقوم الملك الشاب، أو واحد من الجيران على الحدود بمهاجمة بلاده والعيث فساداً في نورماندي، عهد بحماية نورماندي إلى أقرب الأصدقاء إليه وإلى الذين سلف لهم أن قدموا له تأييداً مخلصاً، وأخذ هو نفسه اثنين فقط من المرافقين هما:

أليورد دي فافاشي Alured de Vavaci وغيوفري استورمي Esturmi كإختبار لإخلاصهما له، ودخل في ٣٠نيسان إلى مين، فتدفق السكان عليه من جميع الاتجاهات ومنحوه ولاءهم بكل شكل ممكن، سواء أكان ذلك خشية من الحرب، أو خوفاً من أي نوع آخر من الأزمات، لابل حتى من مخاطرة بالحياة.

وهكذا ارتحل خلال البلاد، وقد أحاطت به أعداد كبيرة من الجند، فتولى تمتين ثقة الناس به، وحث النبلاء المحليين على الدفاع عن مناطقهم وحمايتها، وعندما وصل إلى الحدود مع أنجو صرف كلّ واحد كان معه باستثناء الرجلين اللذين ذكرا أعلاه، ورحب الأنجيفيون بالملك بسرعة أكبر وبأعداد أعظم من سكان مين، لأنهم خضعوا لرغباته بحب أكبر وباستعداد أعظم.

والآن وقد سار كلّ شيء طبقاً للخطة، احتفل هنري بعيد الشعانين في بواتيه، وعندما سمع أن جيش ابنه رتشارد كان يحتل مدينة سينتس Saintes أخذ سكان بواتيه معه، وذهب مسرعاً ليفرج عن المدينة، ولم

يظهر جنـد رتشارد احتراماً للرب أو للكنيسة المقـدسة، ودخلـوا الكنيسة الكبرى وبأيديهم المشاعل ووسائل الإضاءة الأخـرى، وحولوها على الفور إلى حصن، ومـلأوها بـالسلاح وبمـؤن الطعام، ووصل الملك إلى المدينـة بسرعة أكبر مما توقع هؤلاء الجنـد، وأخبر أن المدينة مـدافع عنها بوسـاطة ثـلاثة حصـون، وقـد ركز أولاً القتـال على المدينـة، وتمكن في البدايـة من الاستيـلاء على الحصن الـذي بني منـذ وقت بعيد عنـد مـدخل المدينـة، وتـابع من هنـاك فهـاجم القلعـة بنجـاح مماثل، وكـانت قلعـة أكبر من الحصن الأول، لكن أقـدم بكثير منـه، ووصل أخيراً إلى الكنيسـة الكبيرة، التي اكتظت بجنـد مسلحين وامتـلأت حتى حـدود الانفجـار بالـرمـاة، وكانت مـداسة من قبل حفظـة بيوت الـدعارة، ولاحظ وهـو يقترب منها أنه إذا مااقترف شيء ضد الديانـة المقدسة، سيعاني من ذلك كلّ انسان، ومع ذلك اقترب منهـا وهـو لايـريد أن يـؤذي الكنيسـة أو يقترف العنف ضـدهـا أو الاستخفـاف بها، بل أراد تنظيفهـا مـن الـدنس، وسحب من الكنيسة الـذين خرقـوا حرمتها، لقـد سحبهم جراً إلى خـارجها، لأن كلّ من خـرق حـرمـة القانـون، عبثـاً يثيره ضـده، وألقى القبض على حـوالي الستين من الفرسـان مع نحو أربعمائة من الرمـاة من داخل هذا الحصن، وفي داخل الحصنين الآخرين.

ولمعـرفـة هنـري ملك انكلترا بما كـان يجري في فـلانـدرز قـرر العـودة، فأوكل أكـــوتين إلى ستـــة مـن النبـــلاء، وبنى على الحدود بين نـــانتس Nantes وأنغر Angers قلعة أنفق عليها كثيراً، وسميت أنسينس Ancenis ظهرت فيها جميع معارف وبـــراعة النجارين من أنجو ومين، وأوكل شـــؤون هـذه القلعـــة بشكل خـــاص إلى مـوريس أوف كـــرون Craon وأسند إليه حمايتها، وأصـدر عند وصوله إلى نورمانـدي مرسوماً في بـونفيل سمـى فيـه جميع الـذيـن عهـد إليهم بأمـــور الحدود والـذين جعلهم شحن لقلاعه.

وأقسم فيليب كونت أوف فلاندرز، أمام لويس ملك فرنسا ونبلاء المملكة، بوضع يده على بعض الآثار المقدسة، أنه سيقوم خلال خمسة عشر يوماً بعد مضي عيد القديس جون المقبل في ٢٤ حزيران، بغزو انكلترا بقوة كبيرة، وأن يخضعها ويضعها تحت ولاية الملك الشاب، وتأثر الملك الشاب بهذا العرض للولاء، فذهب إلى وزانت Wissant يوم ١٤ تموز ليرسل رالف أوف لى هي Haie إلى انكلترا مع جيش كبير، وبعث كونت فلاندرز بثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً أمامه من أجل العبور، والذين أرسلهم لم يكونوا ماحدث وتوفر من السكان المحليين، بل جنوداً ذوي خبرة اختير عدد كبير منهم من الفلمنكيين، وبعدما نزل هؤلاء في انكلترا في أورول Orwell يوم ١٥ أيار، في وقت كان فيه حلفاؤهم في خطر، هاجموا من هناك نوروك Norwick يرافقهم إيرل هيوج، واستولوا عليها في ١٨ حزيران، ونهبوها، وحملوا مبالغ ضخمة من المال، كما حملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى وأرغموهم على دفع فدية كبيرة.

وعندما رأى قضاة هنري الثاني سوء الأوضاع وترديها في انكلترا أرسلوا إليه عدداً كبيراً من الرسل عبر القنال، غير أنهم لم يتلقوا أية أجوبة مؤكدة بأن هنري قد خطط للعودة إلى انكلترا، وقاموا بمحاولة أخيرة بهذا الصدد فبعثوا رتشارد الأسقف المنتخب لونشستر ليتحدث إلى الملك، وكان رجلاً يعرفون بشكل مؤكد بأنه كان صديقاً حميماً للملك وقريباً منه أكثر من الآخرين، وكان بارعاً وعالي الحماسة، ويمكن الاعتماد عليه في أن يبين للملك جميع الخسائر، والمصاعب، والمخاطر التي تحملها شعبه، وأن يقدم له صورة صحيحة عن الصراعات التافهة للنبلاء، والحالة غير المستقرة في المدن، وتذمر الناس وضيقهم، الذي سيزداد سوءاً بحكم أنهم يتطلعون نحو التغيير، وقد يقومون بحركات سيكون من الصعب معالجتها.

وهكذا عبر الأسقف المنتخب القنال بسرعة، ووجد الملك في بونيفيل، عاقداً مؤتمراً عاماً مع النورمان في يوم ٢٤حزيران.

وعندما عرف النورمان أن الأسقف المنتخب لونشستر قد وصل، وعلموا سبب قدومه، قالوا: «بما أن الانكليز أرسلوا عدداً من الرسل، وأرسلوا الآن هذا الرجل، يبدو أن شيئاً ليس أقل من الهجوم على قلعة لندن قد استدعى الملك للعودة إلى انكلترا».

واستقبل الملك هذا الرسول الخاص بالحفاوة الجديرة به، وأظهرت الحوادث المدى الذي وثق به بكلماته، وناقش مع رفاقه في ذلك اليوم نفسه مسألة الدفاع عن حدود المنطقة وحماية القلاع، واستعد للعودة خلال أيام قليلة، ومعه جميع حاشيته وأهل بيته، ومصطحباً برفقته الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه جون وابنته جوانا وزوجات أولاده.

وأرسل أمامه إيرل تشستر، وكونتسة لستر مع عدد كبير آخر كان قد أخذهم أسرى إلى بارفلير Barfleur حيث توفر عدد كبير من السفن الراسية، وجمهور كبير ينتظر وصول الملك، وعبر جيش كبير من المرتزقة البرابانكونيين مع أسلحته وعتاده، القنال عند كوسترهام Quistreham وأسرع الملك إلى المرسى في ٨تموز، وتحركت السفن وأقلع في منتصف النهار، وما ان تحركوا داخل البحر، حتى أصبحت الأمواج تبدو قاسية، وهبت الرياح واستمرت كذلك، فجعلت البحارة مترددين بشأن العبور، وأظهروا أمام الملك مشاعر خوفهم، وعبرت وجوههم عن علامات الشك والدهشة.

وعندما علم الملك أن الرياح كانت تهب ضده مباشرة، وذلك عندما كانت السفن قد شرعت في أخذ طريقها المباشر إلى انكلترا، وأن عاصفة قوية تزداد سوءاً، عندها رفع عيناه نحو السماء وقال أمام كلّ واحد:

«إذا كان السلم بين رجال الدين والشعب هو غايتي، وإذا كان رب

السموات قد قضى باستعادة السلم عندما أصل، عندها يمكن برحمته أن يمنحني رسواً سالماً، لكن إذا كان معادياً، وإذا كان قد قرر زيارة المملكة بالعصا، ليكن حظي بعدم الوصول مطلقاً إلى سواحل بلادي».

ومن الممكن افتراض أن صلاته قد سمعت، ذلك أنه وصل في اليوم الذي أقلع فيه عند حلول الظلام إلى ساوثأمبتون، مع كلّ شيء سليماً، وتناول هناك وجبة بسيطة من الخبز والماء، ووضع جانباً أعمال استرداد النظام، وتجنب مقابلة الشعب حتى يفي بوعوده التي قطعها على نفسه أثناء صلاته، بالقيام بالصلاة في مشهد الشهيد الرائع توماس.

وقام بعد برهة قصيرة برحلة سريعة عبر انكلترا، وعندما وصل إلى كانتربري قفز من على ظهر حصانه، وخلع ثيابه الملكية، وارتدى ثياب حاج تائب متضرع، وذهب في يوم الجمعة ٢٥ تموز إلى الكاتدرائية، وهناك وسط الدموع المنهمرة والتنهدات والحزن الواضح شق طريقه إلى قبر الشهيد الرائع، وسجد أمامه مادّاً ذراعيه نحو الأمام، وبقي هناك وقتاً طويلاً وهو يتضرع ويصلي، وخلال هذا الوقت، وأمام أسقف لندن الذي كان يعظ الناس، أعلن أمام الناس، وهو يدعو الرب ليكون شاهداً عليه، أنه لم يأمر، ولم يرغب، ولم يتآمر بشأن موت رئيس الأساقفة، ولكن بما أن القتلة قد أثيروا بكلماته التي لم يقدرها تمام التقدير عندما تلفظ بها، فقد سأل التحليل من الأساقفة الحضور، ووضع جسده للقصاص الصارم بالضرب بالعصا، وقد تلقى ثلاث، لابل حتى خمس ضربات من كلّ واحد من الرهبان بدوره، وكان قد اجتمع منهم عدد كبير.

ونهض من صلواته، ووضع عليه ثيابه التي خلعها من قبل، وقدم التمجيد للشهيد السامي القدر بهدايا ثمينة، وعين مبلغاً قدره أربعين جنيهاً ليكون ايجاراً سنوياً لتزويد وسائل الاضاءة بشكل دائم حول قبر الشهيد احتراماً له.

وأمضى بقية النهار ومجمل الليلة التالية في تأنيب النفس وندامتها، منصرفاً إلى الصلاة وعدم النوم، وتابع صومه لمدة ثلاثة أيام، وحيث أن ندامة الروح، والأسف العميق، وتواضع الروح هي التضحيات التي ترضي الرب أكثر من أي شيء، في كلّ وقت، وذلك تقليداً للملك داود، كان يدعو بشكل متواصل قائلاً: «لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت ضد الرب»، ولهذا استحق أن يسمع من النبي كلمات: «لقد غفر لك الرب أيضاً ذنوبك».

ولاشك أنه الآن قد أرضى الشهيد، ويمكننا القول بأمان بأن ذنبه قد غفر وأزيح عنه، ففي ذلك السبت بالذات، عندما صلى من أجل أن يظهر توماس الرحمة نحوه، ألقى الرب بين يديه وليم [الأسد] ملك السكوتلنديين، فقد استسلم إليه ليكون معتقلاً لديه في رتشموند، وبذلك تحققت نبوءة [ميرلين Mirlin] التي قال فيها: «سيعثر بين فكيه على قطعة لفقت في خليج أرموريكا Armorica» ولقد أراد بخليج أرموريكا قلعة رتشموند، لأنها كانت قد احتلت من قبل أمراء بريتانيين بوساطة قانون الوراثة الآن والذي كما هو منذ قديم الزمان.

ووصف جوردان فانتوسمي Fantosme قبل ١١٨٣ في تاريخه المنظوم ردة الفعل البهيجة لهنري الثاني لدى اعتقال وليم الأسد:

وهكذا رافقوا الملك حتى

وستمنستر

وأبدى اللندنيون سروراً عظيماً لدى وصول

مولاهم

وأعطوه الهدايا وقدموا له الاحترام العظيم

غير أنه كان حزيناً ومهموماً إلى حدما

بسبب ملك اسكوتلندا الذي تصرف
بشكل مجنون
وروجر دي ماوبري Mowbray وهو مقاتل نبيل
الذي كان يعاث فساداً في أرضه ليلاً ونهاراً
وقبل أن تحل ساعة ذهابه إلى الفراش
وصلته قطعة من الأخبار كسب منها
شرفاً عظيماً
دخل الملك إلى حجرته الخاصة
عندما جاء الرسول، عانى من
كثير من المتاعب
هو لم يشرب ولم يأكل لمدة ثلاثة أيام
من الأسبوع
ولم ينم ولو للحظة واحدة بسبب بعض الأخبار
بل أنهك نفسه في الليل والنهار
بالترحال.
لقد عمل بشكل حكيم جداً وسينال جائزة جيدة
كان الملك متكئاً على مرفقه وقد نام قليلاً
ووقف خادم عند قدميه وأخذ يمسحهما بلطف
لم يكن هناك صوت ولاصراخ، كما لم يكن من

بتكلم هناك

ولم يكن أبصا لاطبل ولامزمار ولاآي شيء يصدر عنه صوت

في تلك الساعة.

عندما وصل الرسول إلى الباب وبلطف

دعا

وقال الحاجب: من هناك؟

أنا رسول، صديق، جئت الآن مسرعا عبر هذا الطريق

لورد رابولف غلانفيل بعث بي إلى هنا

حتى أتكلم مع الملك، لحاجة ماسة

بعثني من أجلها

وقال الحاجب: دع العملْ الآن

حتى الصباح

وقال الرسول: بحق إيماني، أنا سوف

أتكلم إليه الآن مباشرة

في قلب مولاي حزن وأسى

لذلك دعني أدخل أيها الحاجب الجيد

وقال الحاجب: أنا لن أجرؤ

ان أفعل ذلك

الملك نائم، عليك الانسحاب

وفيما هما يتكلمان، أفاق الملك

وسمع صراخاً عند الباب: افتح.. افتح

وقال الملك: من هذا، هل يمكنك اخباري؟

وقال الحاجب: سيدي، ستعرف

مباشرة

إنه رسول من الشمال، حسناً

إنك تعرفه

رجل من عند غلانفيل، اسمه

هو برين Brien

وقال الملك: بإيماني، أنا الآن مرتبك جدا

إنه يحتاج للعون، دعه يأتي إلى هاهنا

ودخل الرسول الذي كان من أصل طيب

وحيا الملك قائلاً كما ستسمع بعد قليل:

سيدي الملك، علّ الرب الذي بسكن

في التثليث يحفظك

يحفظ شخصك أولا، ثم جميع

أصدقائك المقربين

وقال الملك: برين ماالذي تحمله من آخبار؟

هل دخل ملك اسكوتلندا إلى رنشموند؟

هل جرى الاستيلاء على نيوكاسل الواقعة على التاين، وكذلك
على الحصون؟
هل أودنيل أوف أمفـــرافيل Odinel of Umfravile أسر وحمل
بعيداً
وجميع باروناتي طردوا من ممتلكاتهم؟
بإيمانك أيها الرسول، أخبرني الصدق
لقد خدموني بسوء، لذا يمكن أن
يعاقبوا بسببها.
ثم قال الرسول: سيدي، اسمعني قليلاً
باروناتك في الشمال أناس طيبون مستقيمون
باسم مولاي تلطف واصغ إليّ
لقد بعث لك بوساطتي تحية وصداقة
وبعثت بتحيات أكبر مولاتي التي تعرفها
أنت معرفة جيدة
لقد أرسل معي يقول لك: إنك سوف تقترف
خطأ في تعذيب نفسك
لقد جرى أسر ملك اسكوتلندا وجميع باروناته
فقال الملك هنري: هل تقول الصدق؟
نعم ياسيدي، الصدق، وفي الصباح سوف تعلم بذلك:

رئيس أساقفة يورك، رجل حكيم ومتعلم
سيبعث إليك باثنين من المبعوثين الخاصين
لكن أنا بدأت أولاً، وأنا الذي أعرف الصدق
لم أنم سوى قليلاً خلال الأيام الأربعة الأخيرة
كما أنني لم آكل ولم أشرب، لذلك أنا جائع جداً
لكن، من فضلك أعطني جائزة لإخباري إياك
ورد عليه الملك: ستكون مخطئاً إذاً
شككت بذلك
إذا كنت قد أخبرتني الحق، ستكون غنياً بما فيه الكفاية
هل جرى أسر ملك اسكوتلندا؟ أخبرني الحق
نعم ياسيدي، بإيماني، لأصلب
على الصليب
أو أشنق بحبل، أو أحرق على نار عظيمة
إذا غداً، قبل الظهر، لم يتأكد هذا كله
عندها قال الملك: الحمد للرب من أجل ذلك
وللقديس توماس الشهيد ولجميع
قديسي الرب
وبناء عليه ذهب الرسول إلى مضافته
وكان لديه الكثير الوفير ليأكل وليشرب

وكان الملك في تلك الليله فرحا مسرورا إلى حد

أنه ذهب إلى الفرسان

وأيقظهم جميعا قائلا:

أيها البارونات، استيقظوا، إنها ليلة طيبة بالنسبة لكم

لقد سمعت شيئا سيجعلكم جميعا مسرورين

وقع ملك اسكوتلندا بالأسر، هكذا

صدقا أخبرت

الآن للتو وصلت الأخبار إلي، عندما توجب

أن أكون في الفراش.

وقال الفرسان. الآن شكرا للمولى الرب

الآن انتهت الحرب، ومملكتك

في سلام

وبدت هذه الليله جميله جدا للملك هنري

وفي اليوم التالي، قبل الظهر، الأخبار نانتة

وصلت إليه

من رئيس أساقفه يورك، الذي

يدعى روجر

الذي حبا مولاه واهتم بالاخلاص

عندما رأى الملك الرسل، لم يكن قط

أعظم سروراً

وخمن أنهم سيقولون الشيء نفسه، ولهذا

أجابهم:

سمعت الأخبار في الليلة الماضية عندما كنت

قلقاً جداً

للذي جلبها إليّ جائزة

سوف تعطى

وتناول عصاً صغيرة، وأعطاها لبرين

عشرة من أرضه سوف يعتقون للمتاعب

التي قاساها

ونعود الآن إلى رواية ديسيتو عن حملات هنري الثاني ضد أعدائه.

الآن وقد نفذ جميع الوعود التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، بكل تقوى، عاد الملك الكبير، ومكث قليلاً من الوقت في لندن، حيث اكتشف أن النبلاء الانكليز قد قدموا لمواجهته هناك، عندها انطلق على رأس قوة، ووصل إلى هنتنغدون Huntingdon فاستولى على القلعة التي كانت تحت الحصار منذ ٨أيار، وحدث ذلك في اليوم التالي لوصوله.

واستولى نبلاء نورثأمبرين Northumbrian ومعهم ابن الملك، والأسقف المنتخب للنكولن، الذي كان قائدهم، على كيركباي مالزيرد kirkby Malzeard وعلى قلعة روجر ماوبري Mowbray بالقوة، وعندما جمع الملك جيشاً كبيراً في بري سينت إدموند، مع حشد

من الجند كان يتدفق من جميع الاتجاهات، أمرهم، بناء على نصيحة عامة، القيام بحصار قلعتي هيوج بيغود Bigod إيرل نورفولك: فراملنغهام Framlingham وبنغي Bungay وكان لدى الإيرل خمسين فارساً، وجيشاً جيد الحجم، لكنه بالواقع أدنى كثيراً بالقوة، ويائساً من قدوم أي انسان لمساعدته، ولهذا أرغم بسبب الضرورات على أن يقدم رهائن وأن يدفع مائة قطعة ذهبية حتى يحصل على السلام من الملك، وفي يوم ٢٥ تموز قدم الولاء للملك، وأقسم على الاخلاص له، وجدد تابعيته له.

وكان ماحدث لجيش الفلمنكيين، الذي أعده الكونت فيليب ليرسله أمامه إلى انكلترا قبل قدومه إليها، وذلك بعدما كان قد أعطى وعداً مؤكداً للملك الفرنسي بوضع يديه على بعض الآثار المقدسة: فقد أقسم يميناً بعدم غزو انكلترا بقوة معادية، وعاد أفراده إلى بلادهم بناء على إذن من هنري، وغادر أيضاً جيش الملك الشاب الذي كان تحت قيادة رالف أوف لى هي، بدون اعاقة ومعه أسلحته وعتاده، وهكذا حدث في الساعة الحرجة، من خلال تدخل القديس توماس الشهيد، أن بات الملك الكبير مسيطراً على جميع انكلترا، والآن وقد حاز ذلك فقد أقلع يوم ٧آب من بورشستر Porchester ومعه ملك السكوتلنديين، ووصل في ١١آب، بعد رحلة موفقة إلى روان، التي وجدها تحت الحصار.

وكان لويس ملك فرنسا، والملك الشاب، وفيليب كونت فلاندرز قد جمعوا القوات من جميع المناطق، فتوفر لديهم جيشاً كبيراً، وهكذا خلفوا السين على يسارهم، وحاصروا روان في ٢٢ تموز، آملين أنهم إذا استولوا على روان، يمكنهم إزالة ماتلطخوا به من عار سببه خرق اليمين أثناء الحصار الفرنسي لفيرنويل Verneuil والعمل الخياني الذي شغل الدور فيه وسببه الفلمنكيون أثناء حصار درنكورت Drincourt وقاوم النورمان الذين توفر منهم الآن قلة مقارنة بالحشد الكبير الذي

وصل، بشجاعة، واعتمدوا على دفاعات الأسوار، واستخدموا حجارة مربعة، وقطع طويلة من الخشب مدببة، فأرغموا الأعداء على فرار طويل، وذلك بعدما هاجم هؤلاء الأعداء الأسوار الخارجية بتشكيلات قتالية واستخدموا آلات الحصار، ولم يعرف الذين كانوا تحت الحصار الاستراحة، واستطاعوا أن يضعوا قوتهم تحت الاختبار بنشاط أكبر واصرار، وتبادل الفرنسيون والفلمنكيون حملات القتال، وعندما شرع الفرنسيون يضعفون شجع الفلمنكيون أنفسهم وانخرطوا بالعمل، واستخدموا كلّ مالديهم من قوة للغم الأسوار، وبقي النورمان غير هيابين لتهديدات الأعداء وهجماتهم، واثقين من توقعات النصر، ونجوا من الهجمات المتوالية والاشتباكات الحادة بكل ثبات، وكان عددهم يزداد يومياً، وكانت المؤن والأطعمة لديهم وفيرة، وفي الجانب المقابل أخذ كثير من الناس بالفرار من الجيش كلّ يوم، لأنهم كانوا تحت خطر المجاعة.

واستمرت هذه الحالة الحرجة لأيام كثيرة، حتى تسلم الملك الفرنسي تقارير معتمدة أن ملك انكلترا قد اقترب من روان في قوة معتبرة، وهكذا آل إلى حالة رعب وحيرة، ذلك أنه بات خائفاً حسبما استخلص من الأقاويل، أن الملك سوف يهاجم فرنسا ويلقي الحصار على باريس، وبحث مع مستشاريه حول أفضل طريقة لايقاف الحصار، بدون أذى لأنفسهم، وبعد اتخاذ قرار عام، أقدم الفرنسيون مع الفلمنكيين على احراق آلات حصارهم، وعلى تمزيق خيمهم،، وعلى إلقاء النار في أكواخهم وفي أبنية الأسواق، وفي يوم ١٤آب تراجعوا وانسحبوا من قرب المدينة، وذلك على الرغم من موت الاشاعات والأقاويل، وبهذا أزاحوا جانباً جميع تهديداتهم، وتبجحاتهم، وقطعهم العهود على أنفسهم بهدم روان، العهود التي غالباً ماقطعوها بحماقة وعجلة، وهاجم أناس من منطقة الحدود الجزء الأقصى من التحصينات ونهبوا بسرعة أعداد كبيرة من السلاح وكذلك العتاد.

وكـان الفرنسيـون قلقين بشأن النفقات، كما كـان الفلمنكيون خـائفين على حياتهم، لذلك اجتمعـوا معاً للبحث حول الأضرار التي لحقت بهم، وبما أن الفـريقين رأيـا أنهما يبـددان جهـودهما قـررا ايقـاف الهجـوم على النـورمـــان والانسحـــاب من الحدود، ونظـروا نحـــو سلمهم أنفسهم وهـدوئهم، لـذلك قـرروا بذل أقصى مـايستطيعـون لـردم الهوة بين ملك انكلترا وبين أولاده، ويمكنك القـول: إن الأولاد قـد أضروا قضيـة أبيهم، وجلبوا بغضـاء رجال الـدين ولعنة النـاس، ومع هذا ينبغي العفـو عنهم لأنهم كانوا شبابا.

وتوجه الـرئيس المنتخب لأساقفة كانتربـري إلى روما بغية تجنب كمائن الانشقاق. وكـان العالم بأسره مرعوبـاً في هذا الوقت من الاصابـة بعدوى صـادرة عن غيـوم الهواء الفاسـد، وكـانت تسبب سعـالاً عامـاً واسهـالاً بـالمعـدة، وكـان هذا خطـراً بـالنسبـة للجميع، وأدى إلى مـوت كثيرين، ووصل إلى رومـا، وبعـدما اجتـاز مـاوراء حـدودهـا، ذهب ليجد البـابـا الاسكنـدر —الذي كـان آنـذاك حياً— في أنـاغني Anagni ووجد هنـاك في البـــلاط نـوابـاً للملك الشـــاب مضـادين لـــه، ويفعلـون كل مـايستطيعون لتسـويد صـورة الأسقف المنتخب، وأخيراً طرحت مسألـة: مـوافقـة من على الانتخابـات والاجـراءات التي أعقبتهـا ستفضل؟ أهي مـوافقـة الملك الكبير أم الملك الشـاب؟ واستغـرق النقـاش حـولها وقتـاً وبحث فيها بـاستمرار، وبدا أنه تم التـوصل إلى حل عادل لها، ثم أثيرت شكـوك كبيرة حول ولادتـه، وهنـا أقسم عـدد كبير من الـرجال العقـلاء، الـذين توفـر عدد كبير منهم إلى جـانب رئيس الأسـاقفة، على الأنـاجيل، أنهم لم يسمعـوا لاقبل الانتخـاب ولاخـلالـه أكثـر من أنـه تم الحمل بـه وولادتـه على فـراش زواج شرعي، وبعـد هـذا جـرى في ٢نيسـان تأكيـد الانتخاب.

وعاد رئيس الأساقفة إلى لندن، وجـرى استقباله بحفاوة من قبل حشد

من بـارونـات انكلترا، احتشـدوا هنـاك يـوم ٣أيلـول، لكن بسبب أن السعادة غالبـاً ما مزجت بالحزن، ما ان أكمل رحلتـه بسعادة حتى دمرت —ياللأسف— كاتدرائية كانتربري بالنار يوم ٥أيلول.

وجرت دعـوة أعيان الكنائس الشاغـرة للاجتماع بغية انتخاب أسـاقفة لأنفسهم، وبما أن منـدوبي الملك الشـاب قـد أخبروا البابـا بأشيـاء كثيرة حـول الأسقف المنتخب لكنيسة إيـلاي Elyوخشية مـــن الاساءة إلى سمعته وتشـويهها بين النـاس الطيبين، أقسم في احتفال مهيـب جرى في بيعة القـديسة كـاترين في وستمنسترأنه بـريء من موت رئيس الأسـاقفة تومـاس، وأنه لم يعرف شيئـاً عن الموضوع ولم يشارك بـه لابقول أو عمل، وأنه لم ينم بعذ سيامته مع أية امرأة.

رفض هنـري الملك الكبير الطغيـان بقلبـه وروحه، وعـدّ من واجبـات الجلالـة الملكيـة ابعـاد رعـايـاه عن الجولان حـول البـلاد، لسلب الفقير، وايـذاء الأرامل واليتـامى، واغتصـاب العـذارى، واهتـم بشكل خـاص بمنعهم عن سفك الـدمـاء، فضـلاً عن هـذا لقد عـرف أن التـذلل غير الاعتيـادي الذي أبـداه الفـرنسيون والفلمنكيـون ورغبتهم في صنع سـلام بينـــه شخصيـاً وبين أولاده صـــادر عن عجـزهم عن مقـــاومتـه، وكـــان سيتجنب الفرنسيين حتى عنـدما يحملون الهدايا، مالم يكن قـد أغري بأي نـوع من الاذلال والتحالف مـع أعداء من هـذا النـوع، من خلال رؤيتـه المستقبلية بإمكانية استدعـاء أولاده —الذين كاد كلّ واحد منهم أن يظن أنهم ضلـوا بـالفعل— إلى ثمار حيـــاة أفضل، أولاده الـذين أحبهم كثيراً، والـذين جعل منهـم سـادة لكثير من الأمم، والـذين لم يتـــوقف قط عن محاولة رفعهم إلى أعلى مـراتب الشرف، حتى يكبحوا النـاس، ويحكموهم بحكمة، ولإرعاب الطغاة، ومحق أعدائه.

وبما أن أعـداءه كانـوا يتفوهـون كلام سـلام، وأرادوا التباحث معـه، ذهب لمقـــابلتهم في ١١ تشرين أول، بين تـــور وأمبـويـــز Amboise

والذي ظهر قد نشر في الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى جميع رعاياه المخلصين، التحيات:

اعلموا انني بنعمة من الرب قد أقمت سلاماً مع الملك الفرنسي، ومع أولادي ورجالي، في سبيل تمجيد الرب ومجدي، وتم الاتفاق بأن أعطي ابني الأكبر هنري خمسة عشر ألف قطعة ذهبية من الأموال الأنجيفية كلّ سنة مع قلعتين في نورماندي حسب رغبتي، ولسوف أعطي رتشارد نصف دخل بواتيه مع قلعتين لايستطيع منهما إلحاق الأذى بي، وإلى غيوفري نصف دخل بريتاني، ولقد عاد جميع رجالي الذين تركوني إلى طاعتي والولاء لي، وذلك بحضور أولادي وبأمر منهم، وقد أقسموا يمين التبعية لي ضد جميع الناس، وسيحتفظون بالأراضي التي كانت بأيديهم عندما تركوني، إن ملك اسكوتلندا مع ايرلي ليستر وتشستر مع آخرين عقدوا اتفاقات معي أو أعطوني رهائن قبل هذا السلام، هم تحت رحمتي، وخارج هذه الاتفاقية مع أولادي، أما الرجال الذين أسرتهم، والذين لم يقدموا رهائن ولم يعملوا اتفاقية، سوف يحررون، على أساس ضمانات أمنية جيدة وبناء على طلب أولادي، وعادت إليّ جميع القلاع التي كانت بيدي أو بأيدي رجالي في بلادي عند بداية الحرب، وجميع القلاع التي حصنت ضدي سوف تعود إلى ماكانت عليه عندما بدأت الحرب».

ووضع الرب في أيدي الملك الكبير لدى هزيمته لأعدائه تسعمائة وستة وتسعين فارساً، لم يرغمهم على دفع فدية أنفسهم بالمال، وفي الحقيقة فك أسار المهزومين من الأغلال إذا قدموا له رهائن، أو لمجرد اعطائهم كلمتهم، وكانت هناك قلة حفظت بالاعتقال الشديد، وهم الذين تدفع جرائمهم الهائلة وماسببوه من كراهية كبيرة، تدفع أكثر

الأمراء رحمة إلى الغضب والتفكير بالعقوبة.

ومن جانب آخر أطلق الملك سراح الذين أسرهم هو أو حلفاؤه، أو الذين اعترض سبيلهم بموجب قانون الحرب أو الوسائل الأخرى، وجاء اطلاقهم مقابل المال، وقد تجاوز عددهم المائة قليلاً.

ولوحظ يوم ٤تشرين ثاني، في حوالي منتصف الليل، ولمدة ساعة وأكثر أن لون السماء الشمالية كان أحمر بلون الدم.

ووضع وليم ملك السكوتلنديين بالأغلال واعتقل في نورماندي، وقد سمح له أن يزار من قبل حشد كبير من رعاياه، وأقام الأساقفة ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات العائدين لمملكته سلماً مع الملك الانكليزي في فالونز Valognes يوم ٨كانون الأول.

وقدم ملك السكوتلنديون الولاء لهنري الثاني، وربط ورثته في أن يفعلوا الشيء نفسه، ووعد أن تكون الكنيسة السكوتلندية خاضعة للكنيسة الانكليزية، وأنها لن تؤوي لاجئين معادين لانكلترا، وكعلامة أخيرة على خضوعه سلم قلعتي روكسبرغ Roxburgh وبيروك Berwick إلى رجال هنري الثاني.

وكان لغيوفيري، أبو هنري الثاني، وكونت أنجو، ابنة تدعى إمّا Emma ولدت له بشكل غير شرعي تماماً من اتصاله بسيدة من لامانس، وعرف داود أمير شمالي ويلز بأمرها وأنها أخت هنري، فطلب منها أن تكون زوجته، وقد حصل عليها بعد إلحاح شديد، وقد استهدف من وراء ذلك اعطاء الفخار إلى أولاده بالانحدار من بيت ملكي إذا مارزق أولاداً، وأن يدخل الرعب إلى قلوب الويلزيين بسبب أقربائه الجدد.

سنة خمس وسبعين ومائة وألف

ترك وليم ملك اسكوتلندا رهائن في نورماندي، ورجع إلى انكلترا في ١١ كانون الأول [١١٧٤]، وقد بقي حراً دون سجن حتى يتم تسليم القلعتين اللتين ورد ذكرهما في الاتفاقية إلى حفظة تابعين لملك انكلترا حسبما تم الاتفاق.

وجرت إزالة جميع القلاع في انكلترا ونورماندي التي اعتقد الملك أنها ظلمت الفقراء خلال الصراع الطويل مع أبنائه.

وهكذا أمكن لأبناء ملك انكلترا، الذين أبعدتهم آراء الرجال الفاسدين عن أبيهم، أن يعودوا إلى الرعاية وإلى حياتهم القديمة والطبيعية، ولهذا قرروا ازالة جميع الشكوك بتقديم الولاء والطاعة لأبيهم، وقدم ذلك أولاً الولدان الأصغر: رتشارد وغيوفري في لاماناس، وبعد هذا فعل ذلك أيضاً الملك الشاب في بور Bur يوم ١ نيسان.

وجاء ملكا انكلترا معاً، وهما اللذان في السنة الخالية لم تكن المملكة كبيرة بما فيه الكفاية لاستيعابهما، وعبرا إلى انكلترا في مركب واحد يوم ٩أيار، ولقد أكلا معاً في الأوقات المعتادة للطعام على المائدة نفسها، وأراحا أطرافهما في غرفة النوم نفسها، وأكرم الشهيد الكاشف توماس وفادتهما معاً بالتساوي أثناء حجهما إلى كانتربري، يوم ٢٨أيار، ولقد اعتنى بهما بالطريقة نفسها، باستثناء أن الملك الكبير مكث طوال الليل مستيقظاً، وهو يصلي، وظل صائماً يعذب نفسه حتى اليوم الثالث.

وقيل بأن فيليب كونت فلاندرز أمسك وولتر أوف فونتين Fontaines في حالة زنا مع زوجته الكونتسة ايزابل، فعرضه للضرب حتى الموت في ٢آب، وبادر إلى تعليق جسده بشكل معكوس فوق مقعد مرحاض، رابطاً قدماه مع بعضهما، وحضر بسرعة مشنقة، وهكذا لم يفقد

شيئاً من الوحشية، واكتمل غضبه ضد الرجل الميت، فأمر بعرضه بشكل عام لينظر الجميع إليه.

وكان جون عميد سالسبري قد دعي إلى تسلم الأسقفية في آينشام Eynsham يوم ٢٦تشرين الثاني، فاستلم حكم كنيسة شرق أنغليا Anglia بموافقة الشعب من نوروك Norwick وبرضا الملك، ومباركة رئيس الأساقفة، وبموجب سلطات الكاردينال، وتمت سيامته من قبل رئيس أساقفة كانتربري في لامبث Lambeth يوم ١٤كانون الأول.

وحول الملك الكبير نظراته نحو حاجيات أولاده، ودفع عن الملك الصغير ديوناً هائلة، فقد تم الاعتراف بكل ماأخذه وزراء الملك الكبير من أجل استخدامات الملك الصغير على الطعام والشراب في نورماندي، ومين، وأنجو، وذلك خلال السنوات الثلاث التي مضت، وعندما دفع خازن الملك تماماً لكل شيء، جرى صرف الدائنين.

سنة ست وسبعين ومائة وألف

عين الملك، بناء على نصيحة ابنه، وموافقة أساقفته، والإيرلات والبارونات، والفرسان والرجال الآخرين الذين كانوا حضوراً، قضاة، ثلاثة لكل واحدة من مناطق المملكة الستة، وقد أقسموا على توفير العدل لكل انسان، وقد تم هذا يوم ٢٦كانون الثاني في نورثأمبتون.

وبناء على أوامر صدرت عن الكاردينال هيوج بيرليوني Pierleoni اجتمع رجال الدين لجميع انكلترا في لندن يوم ١٤آذار، ووقف رئيس أساقفة يورك ضد رئيس أساقفة كانتربري، مدعياً أن البابا غريغوري

الكبير قال: «ليكن هناك تمييزاً في المكانة بين أسقفي لندن ويورك تبعاً لدرجة قدم السيامة»، وطالب بتطبيق ذلك على كانتربري ويورك، واستمر يقول إنه بحكم سيامته ينبغي أن يجلس على يمين الكاردينال، ومن جانب آخر قال رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسته امتلكت الرتبة والتقدم والرفعة تماشياً مع أوضاع الآباء الكنسيين، ومع المراسم الملكية، والامتيازات البابوية، لذلك ادعت دوماً بحق أنها الأولى بين جميع كنائس انكلترا.

ومع استمرار الأسقفين في عملهما الغبي هذا، جلس في يوم الثلاثاء التالي الكاردينال في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، ووصل رئيس أساقفة كانتربري، يساعده أسقف إيلاي Ely وماكاد يجلس على يمين الكاردينال، حتى انفجر قتال فيما حول المكان، وازداد الاضطراب والشجار سوءاً، وارتفعت الأصوات، وتعاظم التهديد، وجرى ضرب بعض الناس، فغادر الكاردينال مسرعاً جداً، وجرت مهاجمة رئيس أساقفة يورك شخصياً، وقد قال بحضور الملك والكاردينال:

يقع اللومُ على تسبيب الجراحة له، وتمزيق ثيابه، على أسقف إيلاي.

ولهذا السبب كانت هناك اتهامات ودعاوى من كلا الجانبين، وجرى اهمال المجلس والتخلي عن الاجتماع، وتكلم الكاردينال إلى رجال الدين والشعب في الساحة الداخلية لوستمنستر، وطالب بالسماح له بالانسحاب والمغادرة، لكن جرت تهدئته بعد ذلك برجاوات من الملك، وقد قبل تماشياً مع رغبات الأساقفة [ثم صدر عن البابا المرسوم التالي]:

«البابا الاسكندر

رغبة في حفظ التمجيد الكلي لكنيسة يورك، وسيراً على خطى أسلافنا، أصحاب الذكرى السعيدة الأحبار: كاليكستوس، وأونوريوس، وانوسنت ويوجينيوس، وبموجب السلطات الرسولية: نحظر على رئيس

أساقفة كانتربري انتزاع أي اختصاص من يورك، ونحظر أيضاً الشيء نفسه على رئيس أساقفة يورك، كما لايجوز أن تكون يورك خاضعة لكانتربري، وذلك توافقاً مع الحظر الصادر عن القديس غريغوري، بل عوضاً عن ذلك إن التمييز بالمكانة ينبغي أن يحفظ بينهما، على أساس ماشرعه ذلك الأب، أي إن الذي يحتل المكان هو الذي سيم أولاً».

وكانت مقاطعات الحدود العائدة لكل من آنجو ومين تعاني من نقص الخبز، وأمن هنري الثاني مايكفي لاطعام عشرة آلاف من الناس كلّ يوم اعتباراً من ١ نيسان حتى بات هناك مايكفي من القمح الجديد، وبناء على الأمر الملكي جرى توزيع كلّ ماكان محفوظاً لاستخدامات الملك سواء في الاهراءات أو أقبية الخمور أو المخازن، على زملائنا الأتقياء وعلى جميع الفقراء.

وجمع فولغرين Vulgrin كونت أنغوليم Angouleme عصابة من البرابانكونيين الأشرار، وتجرأ على الاغارة على بواتو، وحشد بالمقابل جون أسقف بواتو العساكر من جميع الجهات، كما وجمع كثيراً من المرتزقة الذين توحدوا مع ثيوبولد شابوت Chabot قائد فرسان رتشارد دوق أكوتين —الذين كان آنذاك في انكلترا مع أبيه الملك— لانقاذ الشعب الذين أوكل إليه أمر حمايته، من أيدي أعدائه، وانقسموا إلى ثلاث فرق، والتقوا بهؤلاء الأشرار، الذين خربوا القلاع، وأفرغوا الحقول من سكانها، وأحرقوا الكنائس، ومارسو الطغيان على الراهبات في دير باربزيوكس Barbezieux وقد جرى قتل العديد منهم في المعارك، وأعداد ليست قليلة أغلقت عليها القلاع وأحرقوا فيها، وقرر البقية منهم الفرار، فتخلوا عن معداتهم وتركوها غنيمة، وعلى هذا تمت حماية أهل بواتو لابفضل السيوف والخوذات بقدر ماكان ذلك بفضل العناية الربانية، حيث خرقوا فرق تشكيلات أعدائهم بدون أذى، والذين فقدوه كان أربعة من عددهم فقط، وهكذا جاءت السلامة على أيدي رجال

الدين الذين أظهروا أنهم لايفتقدون الروح، بل السلاح.

واستدعى الملك الملك الشاب الذي كان مشغولاً في الخارج، وجاء رجال الكنيسة وبارونات المملكة معاً إلى لندن، فقد جرى ارسال سفراء في قطار كبير من قبل وليم ملك صقلية ليطلبوا يد جوانا أصغر بنات الملك للزواج، وقد استجيب للطلب بعد مداولات، وكان ذلك يوم ٢٠أيار، وتحول طلب الزواج والوعد بالاجابة بالأيمان من جانب الملك، إلى خطبة وزواج مؤكد، وأرسل ملك انكلترا رسلاً إلى صقلية بهدف اقامة حلف مع ملك صقلية فعال، وأن يزدادا تقارباً، وأن يوثقا التحالف، وبعدما اتفقوا على الهدايا التي ستمنح بسبب الزواج، عجلوا بالعودة، وتم هذا بحضور الكاردينال، وبموافقة رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجرى تمتينه برضا النبلاء.

وفي يوم ٢٧آب، أبحرت جوانا ابنة الملك الصغرى للزواج من ملك صقلية، وتولى أسقف ونشستر تأمين النفقات والمؤن المحتاجة للرحلة، مع عدد كبير من الخدم، وبناء على أوامر الملك جرى تعيين رجال شرفاء كمرافقة، وقد توجب على بعضهم الذهاب حتى سانت جايل، وعلى آخرين تسلق جبال صقلية والذهاب إلى قصر بلرم، ولم يتوجب عليهم العودة حتى يشهدوا حفل الزواج، ويروا ملك صقلية وجوانا تتوجا برباط الزواج.

وما ان عبر سفراء ملك صقلية البحر الهائج، حتى جرى تعيين ابنة ملك انكلترا زوجة للملك أمام مجموعة من النبلاء في كنيسة سانت جايل، في يوم ٩تشرين الثاني، وذلك على يد جون أسقف نوروك Nor-wick حسبما كان قد وعد في بلرم يوم ٩آب.

وكان جون أسقف نوروك قد أبحر نحو صقلية، بناء على أوامر الملك، وذلك في أحوال مناخية خطرة وقد تحمل العديد من المصاعب، وكان

من المتوجب عليه التوجه مباشرة إلى روما لـولا أن اللومبارد كانوا مايزالون متورطين بـالانشقاق، وكانت المنطقـة الجنوبيـة التي كان بإمكانـه العبور منها، متأثرة بشكـل حاد بالمجاعة، وكـان من الصعب جداً تأمين العلف للحيوانـات، وتألم الأسقف أثناء سفره خـلال أوفرن Auvergne من عـويل الناس الـذين كانـوا مـرميين في الشوارع، وقـد تورمـوا من الجوع، وكان مايزال بحـالة صحية جيدة عندما دخل إلى مـدينة فالانس Va-lence غير أنـه تسـاءل عن أمـانـة مضيفيـه، فلقـد امتـلأت الفـرش بـالحشرات، التي سببت عـدم نومـه لليـال، واجتاز الأسقف بـلاد امبرون Embrun وتجنب منطقة جبـل جنفري Genevre ووصل إلى الحدود الايطالية، ثم أبحر فوق بحر تيرهنيان Tyrrhenian.

ومن هنـاك، وبسبـب وعـورة المنطقـة، اعتمـد على عـدد من السفن المتنـوعة، والخفيفـة والسريعة، وفضل مـراكب التجـديف واعتمد عليهـا أكثر من اعتماده على السفن الشراعية، وقـد عبر دوقية أبوليا، وإمـارة كابوا Capua ورؤوس كالبيريا Calabria بعد المضيق، وإنني لم أحذف ذكر المخـاطر المعروفـة أيضاً للناس الذين أبحـروا إلى ايطاليا بعـد سقوط طروادة، وتجنب الأسقف رأس بـالينوروس Palinurus وصخور سيلا Scylla ودوامـة تشـاريبـدز Charybdis مع شيء من الخوف، وكـانت لحظات رهيبـة لـدى التفكير أن أعماق البحار الهائجـة يمكن أن تبتلع الانسـان بلحظة، وهكـذا حكم على الرحلـة بقلة الـراحة، وبـدوام القلق، فلقد كان التهديد من امكـانية هجمات القراصنة يمكن أن يرعب أكثر البحارة ثباتاً، ونشأت الاصـابة بدوار البحر من الحالات الصعبة التي عاش فيهـا المجدفين، فقد تأثـرت أجهزتهم الحيويـة بالهواء غير الصحي، ويمكن للمرء أن يتخيل أنـواع المخاطـر التي يواجههـا الناس في الخارج [وذلك بين جميع مشـاكلهم الأخـرى] عنـدما كـانت أوراق الأشجـار في صقلية مع براعـم الكرمة والقصب في المستنقعات كانـت كلها قد ذبلت

بسبب الجفاف، فقد كان الوقت آنذاك هو منتصف آب، وعندما كانوا على وشك الإرساء، كان مركبهم صغيراً بالكاد يمكنه استيعاب ثمانية رجال، وقد غمرتهم مياه الأمواج، وكانوا يائسين وهم يحاولون استرداد قوتهم، ولقد ناموا مرغمين تحت السماء المكشوفة لعدة أسابيع، واضطروا أثناء الليل للتعامل مع الحجارة الصماء عوضاً عن الفراش الناعم الوثير، أو أن التيار منحهم استخدام الرمال، وعلمتهم الحياة أن يحشوا فرشهم بالحصباء.

وبعدما أمضى الأسقف عدداً كبيراً من الأيام في هذا النوع من الشقاء، دخل إلى بلرم، وهناك التقى بثلاثة من أصحابه الرسل، وتسلم في خلال أيام قليلة اجابة مرضية من الملك الصقلي، ولو أنه امتلك الوقت لسأل فيما إذا كانت صقلية قد دعيت بالمثلثة بسبب قمم جبالها الثلاثة أو بسبب شكلها المثلثي، لكنه كان يمضي خريفاً غير منتظم، وفقد اثنان من المرافقين الذين ورد ذكرهم أعلاه حياتهم في حادث من الحوادث، وأصيب الثالث بحمى شديدة ألزمته الفراش، وهكذا عاد الأسقف لوحده إلى انكلترا، بعد بعثة ناجحة، انتهت بزواج الأميرة من الملك الصقلي، ووجد الملك في نوتنغهام ليلة عيد الميلاد.

سنة سبع وسبعين ومائة وألف

وتألقت مدينة بلرم وقتذاك باحتفالات زواج ملك صقلية من ابنة ملك انكلترا، وتدفق رؤساء الأساقفة والأساقفة والكونتات والبارونات ورجال الدين والشعب في لحظة واحدة ليباركوا الزواج وليشهدوا تتويج الملكة الجديدة، وقام وولتر رئيس أساقفة بلرم باتمام مراسم الزواج في ١٣ شباط.

وتوجه الملك هنري إلى فرنسا يوم ١٨آب، وذلك بعدما تولى تنظيم مملكته وفقاً لرغباته، [وهناك أبرم مع ملك فرنسا الاتفاق التالي]:

«أنا لويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نرغب أن يعرف كلّ انسان أننا، وعدنا بكل وقار، بإلهام من الرب، أن نحمل الصليب ونذهب إلى القدس، ونرغب أيضاً أن يعرف كلّ انسان اننا منذ الآن ودوماً نريد أن نكون أصدقاء، وأن كلّ واحد منا على استعداد لحماية الحياة والأطراف والشرف الدنيوي للآخر ضد جميع الناس، وبقدر ما أوتي من قوة، وإذا ماحاول انسان أن يؤذي أي واحد منا، فإنني أنا هنري سوف أقسم على حماية مولاي لويس ملك فرنسا ضد جميع الناس بقدر ماأوتيت من قوة، وأقسم أنا لويس على حماية هنري ملك انكلترا ضد جميع الناس بقدر ماأوتيت من قوة، ذلك أنه تابعي وحليفي، وأن نحفظ العهود التي ندين بها لرجالنا ماداموا مخلصين لنا. وأبرم هذا في نونانكورت يوم ٢٥أيلول».

وأخضع صلاح الدين، وهو مُعذب بوحشية لاسم المسيحية، مصر وسورية، واستولى بالقوة على بابليون ودمشق. وعندما جمع كونت أوف فلاندرز ووليم إيرل دي ماندفيل قوة كبيرة من سكان القدس لمهاجمة حارم Agarenes على الحدود مع أنطاكية، حاصرا حماه Hareng يوم ٤تشرين الثاني، وكان يوم عيد، واعتقد صلاح الدين، الذي حقق المكانة السامية بقوة السلاح لابقوة الأصل والنبالة، أن مدينة القدس المقدسة كانت شاغرة من المحاربين، على هذا حشد جيشاً كبيراً، وغزا أراضي عسقلان بالقوة، وأقام معسكره في مكان اسمه الرملة، وقام ملك القدس والبطريرك وجيش صغير من فرسان الداوية والاسبتارية بقي معهما، مع عدد قليل من المقاتلين، بإعداد أنفسهم بسرعة للحرب، معتمدين لاعلى السيف والرمح، والقوس والنشاب بل على عون الدين فقط، ولقد سلحوا أنفسهم بشارة صليب الرب واستلهموها على الفور،

وساروا مسرعين خلال الليل لمقابلة المسلمين، متذكرين أن من السهل إلحاق الهزيمة بحشد كبير من قبل عدد صغير، وأنه لافرق في أعين الرب بين الربح بين كثير أو بين قليل، وعندما جاء الصباح انعكست أشعة الشمس على ترستهم المذهبة، وتسلق المسيحيون قمة جبل هناك، بينما اصطف المسلمون للقتال في سهل تحت الجبل، وبدا لمن يستطيع الرؤية بوضوح أن المسلمين تفوقوا بالعدد على المسيحيين بنسبة واحد لمائة، ولهذا تعلم المسيحيون من السيدة الحاجة ايجاد مخرج جديد، فحولوا صفوفهم الأربعة التي عبأوها للقتال إلى صف واحد على شكل إسفين، وبذلك تمكنوا بثبات من تلقي الهجمات القاسية التي شنها الناس المطوقين لهم من جميع الجهات، وبينما كان المسيحيون في هذا الوضع الخطر، وحينما باتت المسألة مسألة حياة أو موت، أخذ أودو مقدم فرسان الداوية —مثله مثل يهوذا المكابي— أربعة وثمانين من فرسانه معه، والتحم بطرفهم مع فرسانه، مدافعاً عن شارة الصليب، وشرع الفرسان رماحهم، وحملوا كأنهم رجل واحد، غير ملتفتين إلى يمين أو يسار، وبعدما تعرفوا إلى الصف الذي تحت إمرة صلاح الدين والذي يضم عساكر كثيرة، هاجموه بشجاعة، وخرقوه ومروا فيه بدون تردد، وتابعوا الضرب بدون توقف، فمزقوهم، وسحقوهم وفرشوهم فوق التراب، وتملكت الدهشة صلاح الدين تجاه هذا النجاح، وعندما رأى رجاله قد تفرقوا في جميع الاتجاهات، وأرغموا على الهزيمة، وصاروا طعمة للسيف، قرر هو نفسه اللجوء إلى الفرار، فألقى بسرعة أثقاله، وتسلق ظهر واحد من جمال السفر، ونجا بكل صعوبة من الموت مع عدد قليل من الرجال، ولم يعبأ بالعار الذي تركه لأحفاده، وصح عليه القول: «يطارد واحد ألفاً، ويهزم اثنان ألفين»، وهكذا ربح المسيحيون يوم ٢٥تشرين الثاني ونالوا النصر، وبفضل الأوامر الربانية تم تدمير قوة المسلمين وأشعلت النيران يوم ٢٩تشرين الثاني في جميع أنحاء المملكة.

وجاءت في يوم ١كانون أول ريح عالية من الشرق، فحطمت الأشجار، ودمرت الأبنية.

سنة ثمان وسبعين ومائة وألف

ثلج ثقيل.

وكان على الساحل أعمال ترابية كبيرة مشكلة من المروج، وقد جرى تدميرها بفيضان من البحر، لاسيما من الشمال، وفي ٨كانون الثاني جرفت الرياح العاتية من الشمال السكان، والمواشي، والقطعان في جميع الاتجاهات.

ومتن هنري ملك انكلترا سيطرته على جميع الدفاعات في المقاطعات الواقعة تحت سيطرته، والقائمة على مقربة من الحدود مع فرنسا والقنال الانكليزي، وبعدما رتب كلّ شيء حسبما رغب، عاد إلى انكلترا في يوم ١٥تموز، وإثر عودته زار قبر توماس الشهيد الرائع.

وذهب وليم رئيس أساقفة ريمز Reims إلى كانتربري يوم ٢٧تموز مع مرافقة كبيرة، وكان قصده الوفاء بالنذور التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، إلى توماس الشهيد الرائع، وجاء ملك انكلترا، مع عدد من الأساقفة والعديد من النبلاء لملاقاته، وتم استقباله بحفاوة عظيمة، وقد أمضى ثلاثة أيام في قصر الملك في لندن، على حساب المملكة، وعندما بعث الملك إليه هدايا ضيافة تألفت من عدد من آنية الزينة الثمينة، تمنع عن لمس أي منها، وذلك خلافاً لعادات الفرنسيين، وتقبل فقط بعض الأشياء التي لم تقدم على شكل هدية، بل كدليل محبة من الملك.

وأعطى الملك هنري ملك انكلترا ابنه غيوفري حزام الفروسية في وودستوك Woodstock يوم ٩آب.

وفي يوم ١٣أيلول كان هناك كسوف للشمس.

سنة تسع وسبعين ومائة وألف

ترك الملك هنري الشاب ابن الملك، انكلترا، وأمضى ثلاث سنوات في المبارزات، وأنفق كثيراً من المال، وحينما كان مندفعاً يجول حول جميع أرجاء فرنسا، خلع الشارات الملكية، وحول نفسه من ملك إلى فارس، وقد حصل على النصر في كثير من المنازلات، وجعلته شعبيته مشهوراً، وكان الملك الكبير مسروراً تجاه ذلك وقد تولى تعداد انتصاراته وأعجب بها، ومع أن الملك الشاب كان مايزال دون السن القانونية، أعاد والده إليه جميع ممتلكاته التي سلف انتزاعها منه، وظل هكذا مشغولاً بأعمال الفروسية، حتى لم يعد ينقصه الفخار، عندها أبحر من وزانت Wissant وقد استقبل بحفاوة لائقة به من قبل أبيه الملك، في يوم ٢٦شباط.

وسمعنا أنه في عيد الفصح، وفي احتفال عظيم، تزوجت أغنس ابنة لويس السابع من ألكسيوس بن مانويل، امبراطور القسطنطينية، وأراد الرب هذا الزواج أكثر حظاً من الزواج فيما بين ابنة شارلمان والامبراطور قسطنطين، الذي انسحب من زواج بلا أولاد، وكان قسطنطين قد طرد أمه إيرين من حكم الامبراطورية، لكن عندما عادت إيرين إلى السلطة سملت عيناه.

وقرر الدوق رتشارد صاحب أكوتين قهر غيوفري دي رانكون المتبجح، فجمع قوة وحاصر يوم ١أيار قلعة تيلبيرغ، وكانت هذه العملية مغامرة

مرعبة جداً، وكانت شيئاً لم يتجرأ أي من أجداده على محاولته، فقد كانت القلعة المذكورة في تلك الأيام محاطة بثلاثة خنادق مع ثلاثة أسوار لمقاومة العصيان، ومشحونة بشكل جيد بالأسلحة والحواجز والموانع، ومحلاة بالأبرجة المقامة على مسافات معينة، وكانت محصنة بشرافات حجرية، وفيها وفرة بالمؤن، ومليئة بآلاف الرجال المدربين على القتال، لهذا لم تخش من وصول الدوق، وأغار الدوق نفسه بعنف على المنطقة، وحصل على كثير من الأسلاب، وقطع كروم العنب وأحرق القرى، وأزال البقية وعاث فساداً فيه.

ووصل إلى القلعة، فنصب خيامه وآلات قتاله إلى جانب السور، وأرعب بذلك ساكني القلعة تماماً، لكن مع ذلك بدا لهم أنه من العار البقاء داخل أسوار القلعة دونما هجوم، فاتفقوا على الاندفاع نحو الخارج من خلال الأبواب، والانقضاض بشكل مفاجيء على جيش الدوق، وعندما لاحظ الدوق هذا، استنفر رجاله، وأرغم العدو على التراجع، وكان هناك قتال عنيف عند الباب، واستخدم وقتذاك كلّ شيء في القتال من : الخيول، والرماح، والسيوف، والخوذ، والأقواس، والقسي العقارة، والترسة، والدروع والهراوات أو الحراب، وفي الأخير كسبت الخبرة الجولة، ولم يعد بإمكان أصحاب القلعة الصمود أمام الحملة العنيفة للكتيبة القيادية التي وجهها الدوق من الخارج، وانسحبوا بسرعة إلى خلف الأسوار، ولم يتوقف الدوق فدخل البلدة، وكان هناك اندفاع إلى هنا وهناك في أرجاء المكان، ثم تلا ذلك حرق ونهب، وفي يوم ١٠ أيار استسلمت القلعة، وخلال أيام سويت الأسوار بالأرض، وخضعت بقية القلاع في المنطقة وهزمت خلال شهر واحد، والآن وقد تم وكمل كلّ شيء كما رغب به، عبر الدوق رتشارد إلى انكلترا، واستقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده هنري الثاني.

وتفوق الملك لويس السابع ملك فرنسا على أجداده في أبهته مع

كرمه، وكان قد فرّج عن القديس توماس أثناء وجوده في المنفى، والقديس توماس هو رئيس أساقفة كانتربري السالف، وقد عاش لسنوات عديدة في فرنسا، وتلقى من الملك الفرنسي كثيراً من الألطاف بما توافق مع أخلاقه، وأمل في أن يظهر طاعته للرب بمعاملة رئيس الأساقفة بتقوى واحترام، ومع انتشار الحكايات عن معجزاته في الطول والعرض، قرر لويس أنه يرغب في تقديم تبجيله لجسده بكل تقوى، بغية أن تعبر صلواته واستغفاراته من المملكة الفانية إلى المملكة السرمدية، ولم يتقدم له أو لواحد من أجداده، في آي وقت من الأوقات سواء أكان ذلك في السلم أو في الحرب، زيارة انكلترا، واتخذ لويس لنفسه ثياب حاج واسمه، واصطحب معه مجموعة متواضعة من النبلاء، وقام بزيارته بكل تقوى واخلاص.

وما ان سمع هنري الثاني ملك الانكليز وأبوهم، بقرب وصوله حتى بادر إلى التوجه لاستقباله، وسار بسرعة مزدوجة والتقى بالملك الفرنسي في دوفر في ٢٢آب، وقدم إليه كلّ حفاوة ممكنة التصور، وكانت هناك مسيرة وقورة في الكنيسة الكبيرة، حضرها رئيس الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، ورجال الدين والشعب، وتمت يوم ٢٣آب، كما وكانت هناك تراتيل وأناشيد وسرور عظيم احتفالا بوصول شخص عظيم مثل هذا الأمير، وأنا لاأعرف كم من الفضة الفرنسية والذهب قد أعطى بمثابة هبات، ومنح ملك فرنسا منحة سنوية هي مائة وحدة قياس باريسية من الخمرة، لصالحه ولصالح ورثته، تقدم بشكل دائم احتراما للشهيد، وكانت هذه الخمرة مكرسة لتستخدم من قبل رهبان كانتربري، ونحن نحيي ذكراه، وخشية أن يظهر الفرنسيون أنهم يبتغون آي شيء سوى الشهيد، فقد منعوا أيديهم من الامتداد إلى خزانة أموال الشهيد، وهو شيء ربما كان في أذهانهم.

وهكذا أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في كانتربري في صيام وصلاة،

وقيام، وتقبل من هنري بعض الهدايا الصغيرة، كعلامة على المحبة، وغادر لويس ثانية يوم ٢٦آب من دوفر.

ولندع الآن لبعض الوقت الحملات والسياسة، ونتوجه نحو كتاب آدم آينشام «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، وكانت شخصية محط اعجاب كبير ومحبة في دير لى غراند تشارتريوس ***Grande Char-treuse*** *قرب غرينوبل، وقد جرى اختيار هيوج من قبل هنري الثاني ليكون رئيساً لديره الجديد في ويتهام في سمرست، الذي تأسس عام١١٧٧، وكان مايزال يصارع من أجل وجوده منذ ثلاث سنوات عندما وصل هيوج إلى هناك.*

أسس هيوج أخوانيته في دوثان Dothan التي ترادف اسمها مع الفقر المدقع، فقد كانوا يعيشون في غابة قرب الفيلا الملكية في ويتهام، وهو اسم تنبؤي معناه باللاتينية بيت، أو منزل العقل، وهو ماأصبحه المكان بعدما جاء إليه فيلسوف المسيح الحقيقي، وأوجد هيوج الاخوانية ليعيش أفرادها في خلوات مصنوعة من أعواد الخشب، ومحاطة بخندق ضيق وحاجز، وإلى أن وصل، ومن ثم حتى تمكن من إعادة تنظيم الاخوانية، نقول باختصار:

إنهم افتقدوا كلّ شيء، لابل كلّ شيء ضروري حتى لأبسط متطلبات اخوانيتهم، ولم يكن قد تقرر بعد أين ستبنى الكنيسة مع الخلوات ودير الرهبان أو الدير الصغير، مع الساحات وبيوت الضيوف واستراحة الاخوان، وكان السكان القدماء مايزالون يعيشون هناك في مكان توجب تسليمه إلى الرهبان، كما لم يكن قد تم تجهيز أي شيء ليمكن هؤلاء من التخلي عن بيوت أجدادهم وتسليمها لهؤلاء الذين جاءوا ليخلفوهم، وما كان ذلك بالممكن دون أن يشعروا بالاهانة وبخسارة كبيرة لأنفسهم.

وبادىء ذي بدء عقد هيوج اجتماعاً مع الذين لديهم ممتلكات أو أشياء أخرى سوف يتخلون عنها لأن الأصوات ومجيء الزوار بشكل متواصل سوف يخرب، أو على الاقل سوف يسبب الاضطراب لخلوة الرهبان ولصمتهم الدائم، وبتفويض من الملك عرض عليهم واحداً من اختيارين، إما: أن يعطوا حقولاً وأماكن للسكنى من النمط نفسه الموجود في ويتهام أو أي عزبة ملكية يختارونها، أو أن يتم تحريرهم من التبعية الاقطاعية وأن يذهبوا ليعيشوا حيث شاءوا، وعندما اختار بعضهم الأرض واختار آخرون الحرية، كان هيوج مقرراً مزج العدالة بالكرم، فقال هذا لهنري الثاني ملك انكلترا:

«والآن عليك يامولاي أيضاً أن تنظر أنهم نالوا تعويضات مالية من أجل بيوتهم، ومقابل كلّ نوع من أنواع الأتعاب التي أنفقوها على ممتلكاتهم وأبنيتهم من كلّ نوع، وإلا فإنني لاأستطيع قبول هذا المكان»، وهكذا أرغم الملك على أن يشتري بأثمان مرتفعة أشياء ظن أنها لاتساوي شيئاً تماماً، من مثل: أكواخ قديمة، ودعامات ملتوية، وجدران نصف مهدمة،وبذلك أنفق مبالغ كبيرة مقابل منافع قليلة، وعندما جرى الدفع للباعة، كانوا مسرورين تماماً تجاه هذا الأسلوب الجديد من الشراء، الذي أغناهم بشكل معتبر، وباركوا الراعي الجديد الذي جلب خبزه من مكان بعيد، وهو الخبز الذي منح القوة لكل انسان.

وعلى كلّ حال لم يكن رجل الأعمال راضياً بالصفقة، التي بدت له عادلة لكن غير كريمة، ولهذا تكلم ثانية إلى الملك وهو يبتسم: «انظر يامولاي الملك، كيف تمكنت أنا الفقير الغريب من اغنائك في أرضك بكثير من البيوت»، وضحك الملك لدى سماعه هذا وأجابه قائلاً: «إنني لاأرغب بتسلم هذا النوع من الغنى، الذي جعلني تقريباً معدماً، كما انني لاأعرف أي انسان يمكن أن تكون هذه الأشياء ذات نفع له»، فقال له: «عظيم جداً، أرى أنك غير مهتم كثيراً بصفقتك، ويمكنك

العمل على الاحتفاظ بكرمك باعطائي هـذه الأبنية، فأنا ليس لدي مكان أريح فيـه رأسي» ووجـد الملك نفسـه غير قـادر على الاجـابـة، وحـدق مندهشـاً بالسـائل، ثم قال مجيباً له: «إنك راعٍ غير اعتيـادي، هل تعتقد حقيقـة انني غير قادر على أن أبني لك أبنيـة جَديـدة؟ أخبرني على الأقل مـاأنت مقبل على عملـه بهؤلاء»؟ فأجـاب هيـوج قـائلاً: «إنـه غير لائق بكرمك الملكي أن تسأل عن مثل هذه التـوافه، إن هذا أول طلباتي منك، وبما أنها توافه لماذا لايجري منحها فوراً»؟.

وشعر الملك، الذي امتلـك حسّ الدعابة، بالسرور الكـامل تجاه سرعة بديهته، وعن عمد أطال المساجلة الكلامية قائلاً:

«هل يمكن أن يكون هناك انسـان على أرض غريبة بمثل هذه الجرأة؟ ماالـذي يمكن أن يحدث لو أنه استخدم قبضتـه، طالما لسانـه بمثل هذا العنف، ومن أجل ألا نعاني من الأسوأ، دعوه يأخـذ الذي أراده»، وعندها أعاد هيـوج الأبنية التي كان قـد تسلمها إلى أصحابها القـدماء، مع أنهم كـانوا قـد تسلمـوا أثمانها، وقـام الملاّك إما ببيعهـا مـرة ثـانية، أو بنقلهـا ليعيشوا فيهـا في مكان آخر، وهكذا تبين أنـه: موهوب بـالبصيرة والتقوى مثل نحميا، وبفضائل سليمان، وبغيرة داود، وبذلك أمكنه بناء قدس بلا دماء، وانطلق على الفور يعمل على انشاء المبنى الذي نراه اليوم.

وعندمـا اكتمل تشييد الأبنية التـي تطلبتها عادات الاخـوانية، وأصبح عدد الاخـوان تامـاً، ركز الراعي الجيـد جهوده على تـدريب النفوس التي أسنـد إليـه أمـر رعـايتهـا في مجال الاحتراف المقـدس، وصرف الكثير من الـوقت والجهـد في سبيل تصنيع وشراء، والحصـول على المخطـوطـات الدينيـة بكل وسيلة ممكنة، لأن هذه المخطـوطات كانت عونـاً كبيراً له في مهمته.

وفي إحـدى المرات كـان يتحـدث مع الملـك فـورد ذكـر قلـة الكتب،

وعندما وجهت إليه النصيحة في أن يبذل جهده في الحصول على المطلوب ونسخها بوساطة نساخ مخصين، أجاب أنه لايمتلك الرق للكتابة، وهنا سأله الملك: «كم من المال تعتقد عليّ أن أدفعه لك لتدارك هذا النقص؟» فأجابه: «إن قطعة نقدية فضية واحدة ستكون كافية لوقت طويل»، وعندها ابتسم الملك وقال: «ماأثقل هذه المطالب التي طلبتها منا»، ثم أمر على الفور بإعطائه عشر قطع تسلم إلى الراهب الذي كان مرافقاً له، ووعده كذلك بأن يرسل إليه نسخة من الكتاب المقدس تحتوي على العهدين، وعاد الراعي إلى بيته، غير أن الملك لم ينس وعده، وحاول جاهداً أن يجد نسخة فخمة حقا من الكتاب المقدس، وبعد جهود حثيثة وبحث نشيط ، بلغه أن رهبان القديس سوزن Swithun [ونشستر] قد صنعوا حديثا نسخة ممتازة من التوراة نسخت بشكل جميل، استخدمت للقراءة في غرفة طعام الدير، وقد سر كثيرا بهذا الاكتشاف، واستدعى على الفور راعي الدير، وسأله إعطاءه الهدية التي صنعها وتسليمها له، واعداً إياه بجائزة قيّمة، واستجيب لطلبه بكل سرعة، وعندما تسلم راعي دير ويتهام ورهبانه نسخة الكتاب المقدس وتفحصوها كانوا مسرورين بها كثيرا، وأعجبهم صحة النص كثيرا، وزاد هذا حتى على جمال النسخ والروعة الكاملة للنسخة المخطوطة.

وعندما أخبر راهب من ونشستر زار ويتهام هيوج بأن هنري الثاني قد أخذ نسخة الكتاب المقدس الجديدة والجميلة من ديره، أعاد هيوج على الفور هذه النسخة الخطية الثمينة إلى ملاكها الأصليين، وذلك على الرغم من خوف رهبان ونشستر من غضب الملك، وكان هيوج على كلّ حال قادراً على التعامل مع الغضب الأنجيفي لهنري، وتظهر القصة التالية كيف أثار أسقف لنكولن حنق الملك بحرمانه رئيس الأحراج الملكية.

وعندما بات تصرف الأسقف الجديد لدير لنكولن معروفاً في البلاط،

بـذل عدد من النـاس جهدهم لـزيـادة تأجيج غضب الملك ضد هيـوج بكلمات كلها سم مثل قولهم:

«إن النكران الأسـود للرجل لاحسانك غير العـادي نحوه واضح الآن تمامـاً، والجائزة التي تلقيتهـا مقابل مـابـذلنـه من جهد في سبيـل تقدمـه ظاهرة تمام الظهور».

وتصرف الملك بصبر وأنـاة وذلك على الـرغم من غضبـه، وأرسل من استـدعى الأسفف، وعنـدمـا عـرف أنـه قـرب وصـولـه، ركب فـرسـه، وانسحب مع جميع نبلائه، الذين كانوا بعدد معتبر، إلى غابة مجاورة.

وجلس أرضـاً في بقعة جميلـة، وشكل الإيرلات والبـارونات حلقـة من حـوله، وأمـر هؤلاء بعـدم الوقـوف أو تحيـة الأسقف عندمـا يصل، ولكي نجعل القصـة الطـويلـة قصيرة، جـاء الأسقف وقـدم التحيـة للملك وللجماعة، لكن ما من واحـد ردّ عليه تحيته، وعندمـا رآهم جالسين هناك صـامتين وغير عابئين، جـاء ووضع يـده بلطف على كتف أحد الإيـرلات الـذي كـان يجلس إلى جـانب الملك، وجعلـه يعطه مكـانـه إلى حـانب الملك، وتلا هذا صمت عميق، وانتظر كلّ واحد منهم وقتا طويلا.

وأخيراً رفع الملك رأسـه وأمر واحـدا من خدمـه بإعطائه إبـرة وخيطا، وبعدما تسلمهما بـدأ بنفسه يخيط رباطا وضعـه حول اصبع مجروح في يده اليسرى، وسـاد الصمت، في حين عمل هذا لبعض الـوقت لكي ينجنب الاحراج في صنع لاشيء، ولقـد اعتاد النـاس الغضابى على التصرف وفق هـذه الطـريقـة، لأن غضبهم ألـزمهم بـالصمت، ولايمكنهم أن يجدوا متنفساً له.

ونظر الأسقف إلى مايجري، ولاحظ أن مظـاهر عرض الغضب لصالحه، وتأمل هـذا الصراع للعـواطف الانسـانيـة وكأنـه واقف مـن أعلى بـرج للمـراقبـة وللتحليل العقلي، والتفت آخيراً نحـو الملك وقـال: «كم تشبـه

أبناء خالكم في فالاسي Falaise » ، ونفذ هذا التعليق الذي قاله بلطف وصوت منخفض إلى أعماق الملك، فضغط على أصابعه وأخذ يضحك دون أن يسيطر على نفسه، واستلقى على الأرض لوقت طويل دون أن يتمكن من كبح سروره، واندهش الناس الذين فهموا العبارة اللاذعة تمام الاندهاش واحتاروا كيف أمكن لرجل في وضع هيوج أن يتجرأ بالمزاح في حضرة ملك جبار في مثل تلك اللحظة، وعلى كلّ حال لم يستطيعوا منع أنفسهم من الابتسام، وانتظروا بعض الوقت ليسمعوا رد الملك، وكان معظمهم غير فاهم لمعاني ماقاله هيوج، وكانوا في ضياع تجاه التبدل المفاجىء لميول الملك وتصرفاته.

وأخيراً بات الملك مدركاً لحالة إلتباسهم فقال مايلي:

«لايمكنكم فهم الطريقة التي أهاننا بها هذا المتخلف، لذلك سوف أشرح: كان من المعروف أن أم جدنا العظيم وليم فاتح هذه الأرض، كانت من أصل وضيع، وأنها جاءت من فالاسي وهي بلدة نورمانية هامة، مشهورة بصناعة الجلديات، فلقد رآني هذا المزوح أخيط أصابعي ولهذا أطراني لمشابهتي أخوالي في فالاسي» .

ثم قال مخاطباً الأسقف : « والآن أخبرني أيها الصديق الطيب ، لماذا رأيت من المناسب دون اخباري، القيام بحرمان رئيس أحراجي، ولماذا عاملت طلباتي التافهة منك بمثل هذا الاستخفاف، حيث لم تقدم شخصياً لتشرح لي لماذا رفضتها، كما أنك لم ترسل أي اعتذار مع رسلنا»؟ وعلى الفور أجاب الأسقف على هذه الاحتجاجات بهذه الكلمات:

«إنني أعلم أنك عملت بجد لتجعلني أسقفاً، ولهذا إنني مكرس لانقاذ روحك من المخاطر التي قد تلم بها، لولا أنني حريص على تأدية واجبي الصريح نحو الكنيسة التي عهد بها إليّ، وإنه لمن الضروري حرمان المعتدي على كنيستي والظالم لها، وأكثر من هذا القيام برفض كلّ

من يحاول أن يتملك بشكل غير شرعي شيئـاً من أوقـاف تلك الكنيسـة، ولقد رأيت من غير الضروري الاتصـال بسموك، لأنك عاقل تمامـاً وقادر على ملاحظـة ماهو صحيح، ومن المؤكـد أنك ترغب في اظهـار موافقتك على ماتعرف أنه كذلك».

ولم يجد الملك أي اعتراض على هـذا التوضيـح، والآن وقد زالت آخـر آثار غضبـه المتسرع، عانق الأسقف بـوجه مشرق، وعهـد بنفسه لصلـواته بشكل ملح، وتـرك له حـرية القـرار بشأن مسألـة تحليل الرجل المحـروم، الـذي اعتـذر وتـذلل كثيراً، وأقسم يمينـاً حسب الصيغـة التي وضعتهـا الكنيسـة، وبعـدمـا جلـد مع شركـائه، جـرى تحليلـه، ومنحـه الأسقف تبريكاته، وقد كرس حياته كلها له، وأصبح صديقه الخاص ومعاونه.

وقـدم ديسيتو وصفـاً لطـريقة تفكير هنـري الثـاني الفجـة العادلـة في تغييراته القضائية في انكلترا(١١٧٩).

طلب الملك الكبير، هنـري الثاني، ملك الانكليـز في هذه الأيـام صنع أشياء كثيرة كانت صعبـة التحقيق، فقد وجد العمال لايرغبـون في ممارسة الأعمال العامة، ولايهتمـون بواجباتهم، ويصرفون اهتمامـاتهم نحو شؤونهم الذاتيـة، وبات قلقاً أكثـر فأكثر تجاه الصـالح العام، وهكذا عهـد بشؤون القضـاء في بعض الأماكن لـرجال آخـرين أمنـاء، وعلى هذا تـوجب على السلطات العامة في الأقاليم قمع المجـرمين والذين يستولون على الأموال ويسيئون إلى الجلالـة الملكية، فهؤلاء يستحقـون الغضب الملكي، وستنزل العقـوبات بـالذين يسـارعـون لاصطياد الحيـوانـات المتوحشـة بالتغـريم وبـالسجن الطويل، ويتـوجب أن تقمع عقـوبات المجـرمين، وينبغي أن ينال الـذين يلقى القبض عليهم عقـوبات ثقيلـة، ويجب معاقبة القـاتل بشنقـه، والخائن بإدانته ونفيـه، أما الـذين ألقي القبض عليهم لإقترافهم

جرائم أصغر، فتقطع أصابعهم، وعلى رجال العدالة منع أعمال العدوان والتعويض عن الأضرار.

ومرة أخرى بعد مضي بعض الوقت، اهتم الملك اهتماماً كبيراً باظهار العدالة لكل انسان، وأمر بتأمين المزيد من الحماية لرعيته، وأراد امتحان اخلاص عدد كبير من الناس، وبحث بعناية عن محبي العدل بين مختلف طبقات الناس، وشدد الحصول على الرجال الذين يمكن ايجادهم بين الآلاف، الرجال الذين لاتفسدهم الأموال، لأن عرضاً مالياً يمكن أن يغير عقل انسان ما، ومع الناس المتغيرين يمكن تبديل الأحكام التي لايجوز تبديلها، وقام رجال الدين بالتفريج عن شكاوى الفقراء، كما قاوم الفرسان المخولين بالسلطة الناس الذين كانوا أكثر قوة وأجبروهم على التعايش مع القانون العام، وهكذا باتت مآسي المظلومين واضحة، ذلك أنه عين رعاة ديرة جدد، وإيرلات جدد، وقادة جدد، بعضهم من أفراد بيته وبعضهم من أقرب الناس إليه وكلفهم بالاستماع لكل قضية واتخاذ القرار حولها.

وبعدما عين الملك عدداً كبيرا من رجاله المخلصين من جميع الطبقات ووجدهم يضرون بالرفاه العام، وبما أن آيا منهم لم يعد النظر في أي قرار، وعندما لم يجد أيه وسيله لمساعدة آفراد الشعب، قرر أنه يستطيع أن يفرز بعض الرجال عن المجموع العام، رجال مع أنهم كانوا يعيشون بين الناس، كانوا فوقهم، وكانوا ممن شعر وجرب أشياء أكثر من الناس، ولهذا حوّل كلّ شيء كان عرضه للتغيير ونقله إلى الكنيسة، وعيّن أساقفة: ونشستر، وإيلاي، ونوروك مشرفين رئيسيين على العدالة في المملكة، لكن لبعض المناطق فقط، معتقدا أن الذين سلف له تعيينهم منذ وقت طويل مضى كانوا أقل احتراما، فإن هؤلاء الأفراد من جهة أخرى كانوا أصلب عودا، ويخشون الرب عن إيمان، الرب ملك الملوك، وخالق الناس، وهم سوف يحكمون اعتمادا على ضمائرهم، فينتقمون للأفاعيل، ولايلتفتون

يمنة ولايسرة، وهم لن يظلموا الفقير في محكمة ليست فاسدة بقبولها الرشوة، ووقتها إذا ماتورط رجال الدين في قضايا غير دينية مضادة للقانون، وبسبب هذا استدرجوا للمساءلة، يمكنهم الاحتجاج أنهم قاموا بما قاموا به بناء على طلب الملك، وأن مقاصد الملك كانت تقوية، وأنه رغب في إرضاء الرب عن أعماله، وأن ينال ثناء الناس، وتقرر جلوس هؤلاء الأساقفة وأتباعهم من القضاة لسماع القضايا، لكن جرى الاحتفاظ ببعض القضايا للملك، وقد تقرر عرضها في وستمنستر يوم ٢٧آب.

وكانت هذه السنة سنة جيدة: بعد مرور شتاء جاف، وبعد هبوب رياح شمالية في الربيع وبعدما عبرت بلطف وسط البلاد من الغرب إلى الشرق، سقت أمطار خفيفة الحقول في ١٣حزيران، فأنعشت نفوس الفلاحين الذين اعتقدوا أن بذورهم قد ضاعت، وساعدت هذه الأمطار على نمو أشجار الفواكه وصغار الحيوانات التي كانت أشبه بالموتى، وكان المناخ لطيفاً نحو البذور، لامس فقط الجذور الصغيرة، وتتابع هطول المطر والرزاز فأعاد الخصب، وساعدت الحرارة الصادرة عن أشعة الشمس على زيادة خصوبة الفواكه، وبشكل غير متوقع أعطت الأرض التي كانت من قبل جافة، مواسم عظيمة، وعلى هذا كان بإمكانك أن ترى في بعض الأماكن سبع سنابل على ساق واحدة، وعليك أن تتذكر أن شيئاً ما أو شيئاً آخر يحدث فجأة، بدون أمل، وبشكل غير اعتيادي، وربما يحدث هذا لك في أيامك.

وثانية أنزلت السماء نعمها ورحمتها على رعاياها وكذلك فعلت الطاقات والقوى الأرضية، وهكذا نجد أن كلّ انسان كانت لديه قضية في محكمة مدنية أو دينية بات لايشك أن المحصلة ستكون خيرة بالعون الرباني، لأن المراسيم صدرت —كما قلنا من قبل— بتعيين أساقفة في المناطق بناء على أوامر من الملك، وأن يجلس هؤلاء للاستماع إلى

الخلافات ويبتون فيها، لكنهم كانوا لايملكون حق فرض عقوبة الاعدام، فإذا كنت أميناً يمكنك القدوم بسلام إلى المحكمة المشكلة برئاسة رئيس أساقفة كانتربري، وأنت مطمئن تماماً في نفسك حول المشكلة التي ستعرض، ومن أجل عدم انحراف مساعديه الذين يقدمون له المشورة وكذلك الطاقم الذي يتولى الأمور الإجرائية، وابتعادهم عن جادة الصواب، ولكي لايتم افسادهم بالمال لصالح الخصوم، أقسموا يميناً على الكتاب المقدس وفقاً للقانون المدني، وبما أن الجميع يتحملون مسؤولية عامة فقد أقسموا على الأناجيل أنهم لن يلوثوا مطلقاً أيديهم بالمال، وأنه ليس هناك استثناء لأحد، ووعد رئيس الأساقفة بهذا في خطبته التي ألقاها في باغهام Pagham.

وغالباً ماعبر كادوالون Cadwallon الذي امتلك إمارة في جنوبي ويلز، الحدود القديمة بين الانكليز والبريطانيين، وكان يدخل إلى التخوم فيقتل بعنف عدداً كبيراً من الناس، وقد أمضى حياته بالقيام بالغارات والهجمات السرية، وأخيراً جرّ إلى أمام الملك، بعدما جرى اتهامه من قبل كثيرين، وعندما كان مع الملك كان تحت حمايته، ولكن بسبب جرائمه الوحشية كان دوماً خائفاً جداً.

وفي طريق عودته إلى بلاده وقع في كمين وألقي القبض عليه وقتل يوم ٢٢أيلول، وقد أضر هذا السلطات الملكية ضرراً كبيراً، وهتك القانون العام الذي توجب أن تحفظ به المملكة سليمة، لأن كادوالون، وإن استحق الشنق مرات كثيرة لجرائمه، توجب حفظه احتراماً للملك الذي كان عائداً من بلاطه، ولأنه كان قد حصل على أمان لمدة محددة من الزمن.

ومع أنه مامن أحد خاف من هذه الحادثة، ومامن شيء يشبهها قد حدث في أيامنا، لم يدعها الملك تذهب بدون عقوبة، فقد عاقب المعتدين بقسوة، فإذا مادعيت إلى البلاط الملكي لاتحتاج إلى الخوف،

وواسى الويلزيون بعضهم بعضاً، لأن موت واحد من رجالهم كان معناه جنائز حزينة وبغيضة لكثير من النورمان والانكليز من سكان التخوم، فقد اعتقل الملك الذين عرف أنهم القتلة مع الذين شكك فيهم، وبرهن على تجريمهم في محاكمة علنية، وأصدر أحكاماً قاسية قضت بشنق بعضهم على المشنقة، وبتدمير مقتنياتهم بعد مصادرتها، وأرغم آخرين على العيش حياة تعيسة بمثابة هائمين في الغابات.

وكان القدر لطيفاً تجاه لويس السابع ملك فرنسا في أيامه الأخيرة، فيما يتعلق بزواجه الثالث، فلقد تزوج ثلاث مرات بشكل قانوني، وفي الوقت الأعظم سعادة —كما كتب في الحوليات الفرنسية— نتج عن زواجه الثالث انجاب ولي للعهد ذكر، وكان الملك قد رزق من زواجيه الأولين بأربع بنات فقط، ورزق بعد طول انتظار، إنما بسعادة بولده فيليب، من زواجه الثالث، من أديلا ابنة ثيوبولد العظيم، كونت بليوس، وقد أحب الشعب هذا المولود، وكان رجال الدين على استعداد لتقبله، وذهب فيليب عندما كان في الرابعة عشرة من عمره إلى ريمس، وذلك بعدما التقى برؤساء أساقفة المملكة، وأساقفتها وبأمرائها، فقد كان بحاجة إلى موافقة هؤلاء تماشياً مع عادات المملكة، ورسم في الأول من تشرين الثاني ملكاً على فرنسا، وجاء هذا بموجب حق الوراثة، وبرضى والده الذي كان أباً وحاكماً لجميع رعاياه، وجرى الرسم في ظل وقار جميع القديسين حتى يتولوا حمايته ضد أعدائه، وكان الذي تولى رسامته وليم رئيس أساقفة رايمس، وهو خال الملك، وفي أثناء هذا التتويج كلف فيليب ملك فرنسا فيليب كونت فلاندرز أن يكون تابعه الشخصي الذي يحمل سيفه، ويعدّ الاحتفالات الملكية، وامتلك كونت فلاندرز حقاً مضاعفاً بهذا المنصب، وجاء ذلك من خلال والده ومن خلال زوجته.

وحضر الملك هنري، ابن هنري الثاني، ملك انكلترا، وزوج أخت ملك فرنسا، هذا التتويج للروابط الوشيجة التي تربطه بالمتوج، ولأنه

دعي لمشاهدة الاحتفال، ومع أن بريطانيا تستحق إلى أبعد الحدود أن ندعى عالما آخر، وغالبا مانسمع أن البريطانيين منقسمين بين أنفسهم، يبقى من الواضح أن مامن واحد من ملوك بريطانيا أو انكلترا اعترف بأن ملك فرنسا متفوق عليه، وهم بالحري اعتادوا أن يكونوا في الغالب أصدقاء، وقد قرروا في الرسائل المتبادلة فيما بينهم دعوة أحدهم الآخر بالأخ، وهذه عادة نحد حتى شارلمان قد راعاها بعدما جرى تتويجه امبراطورا للرومان، ولاحظ هنري الملك الشاب أنه حظي بتميز واهتمام أثناء الاحتفالات المهيبة، وقد مارس هذا الامتياز فتحدث مع جميع النبلاء أثناء وجوده، وهكذا تعلم من أفواه الشعب الفرنسي ماتعلق بالأحداث المستقبلية، واحتفظ الملك هنري الثاني بالتاج على رأس الملك الجديد، وذلك خشية من قول الذين قالوا إنه مازال شابا وأن التاج يجرحه، وأن هناك من هم أكثر لياقة بالقبام بهذا الواجب منه، فهو قد رفض دعوى هؤلاء، وكان من معاني هذا أن الفرنسيين إذا ما احتاجوا في أي وقت إلى مساعدة، يمكنهم بأمان طلبها من واحد ساعد أثناء تتويج ملكهم.

سنة ثمانين ومائة وألف

وكان الملك هنري يعلم أنه غالبا ماتسود آراء المستشارين الأشرار، في ظل كلّ أمير جديد، لاسيما إذا ما كان ملكا شابا، لهذا اتخذ الملك هنري ملك انكلترا الاحتياطات خشية أن يتحول هذا لغير صالحه، لقد خشي من أن يقدم الذين يضمرون له السوء ويرغبون به إليه، فيقترحوا على ملك فرنسا بعض الخطط الضارة بالنسبة لأراضي نورماندي، لأن الذين عاشوا قرب حدودها حافوا من قوة النورمان ومما ينمتع به اسمهم من جبروت، فهذا كان معروفا في جميع أنحاء العالم، وجرى تكليف رتشارد

أسقف ونشستر من قبل الملك بالعناية بهذه المسألة، فعبر الفنال يوم ٦ أيار،وأخذ معه سفيراً تابعاً وهو وولتر صاحب كاونتننس، وهو حافظ ختم الملك، وعندما وصلا إلى باريس وجدا الملك لويس طريح الفراش، قد حنته طول أيام عمره مع المرض.

وانتخب رجال الدين في ليموغز Limoges سيبراند Se-brand عميد كنيسة بواتو أسقفاً لهم، وجرى هذا دون الحصول على موافقة هنري الثاني ملك انكلترا، أو رتشارد دوق أكوتين، وكعقوبة لهذا السلوك المهين، تمت مصادرة ممتلكاتهم، وهدمت بيوتهم، واقتلعت كرومهم، وعندما سمع البابا الاسكندر بهذا، أرسل تعليماته إلى وارين رئيس أساقفة بورغز، ليتولى البحث في المسألة، وليسعى لايجاد تسوية، ومهما يكن الحال، عندما جاء رجال الدين من ليموغز إلى رئيس الأساقفة، وجدوه ميتاً، وهنا حتى لايبدو أن جهودهم قد ذهبت عبثاً، دس رئيس كهنة برايف Brive رسائل البابا، التي كانت ماتزال مختومة في أيدي الرجل الميت قائلاً: «إن مالم يمكنه انجازه أثناء حياته، دعوه ينجزه في موته»، وقالوا: إنه بهذه الوساطة البارعة توصل أسقف ليموغز إلى مصالحة مع الملك ومع الدوق.

وجاء الملك هنري الشاب، ابن الملك الكبير إلى انكلترا في الأول من نيسان، وقد استقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده، وأقسم في ردنغ بحضور الآثار المقدسة، أنه سوف يتبع جميع توجيهات والده في جميع المسائل، لاسيما في توزيع البلدات، والقلاع والمنافع حسبما هو وارد في مرسوم كان موجوداً هناك، وبعد هذا عبر الملك الكبير القنال من بورتماوس، وعبر الملك الشاب من دوفر، واحتفل الملك الكبير لدى وصوله إلى فرنسا بعيد الفصح في لامانس، وتزوج فيليب ملك فرنسا من مرغريت ابنة بلدوين كونت هينولت، التي كانت أمها مرغريت أخت كونت فلاندرز، وجرى العرس في لى ترونشت Tronchet واحتفل

بالعرس في بابوم Bapaume وقد سمعنا الكثير عن روعة ذلك الزواج الذي لاينسى، وقد حدث في يوم ٢٩أيار، وهو يوم عيد القديس دينس، وكان غي رئيس أساقفة سنس هو الذي تولى سيامة مرغريت زوجة فيليب، ملكة لفرنسا.

وبعدما كان لويس السابع، قد تخلى عن صلاحياته وسلطانه للملك فيليب، سلمه خاتمه أيضاً، وهكذا بات من غير الممكن اتخاذ أي قرار يتعلق بالمملكة بدون معرفة ابنه، وثار نزاع بين الملك فيليب وأمه أديلا، فقد جرى الاستيلاء على عدد من القلاع مما تسلمته الملكة هدية زواج، وقام وزراء الملك فيليب فطردوا بعنف شحن هذه القلاع، وذلك بناء على تعليمات من الملك، وعلى كلّ حال تصالح الملك مع أمه عندما طالبا بتحكيم ملك انكلترا، وكان ذلك في مؤتمر الملكين الذي عقد في قصر غيسور Gisors يوم ٢٨حزيران، [وصدر عن هذا المؤتمر الاتفاق التالي نصه]:

«أنا فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، وأنا هنري ملك انكلترا بالنعمة نفسها، نرغب في أن نضع أمام انتباه جميع الناس، أننا الآن وفي المستقبل جددنا بإيمان وأيمان المعاهدة والصداقة التي عقدها سيدي الوالد ملك فرنسا، وهي المعاهدة التي أكدتها أنا هنري الثاني ملك انكلترا في آيفري بحضور الكاردينال بيتر، ورتشارد أسقف ونشستر، وقد أزيل كلّ سبب للخلاف بيننا، ويتعهد كلّ واحد منا أنه لن يطلب من الآخر أية أراض أو بلدان، أو أية أشياء أخرى يمتلكها، والاستثناءات لهذا سوف تكون أفرين Auvergne التي سببت الخلاف بيننا، واقطاع شاتيرو Chateauroux والايجارات الصغيرة لأراضي بيري Berry وإذا ماحتل أي جزء منها، سواء ضدنا معاً، أو ضد واحد منا، أو على أي حال إذا لم نكن نحن قادرين على الوصول إلى اتفاق من خلال مناقشاتنا، فيما يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام،

فإنني أنا فيليب ملك فرنسا قد اخترت ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات، واخترت أنا هنري ملك انكلترا، ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات للبحث في هذه المسألة، وسنعترف بصدق بما سيوصون به مهما كان، ونعد بإيمان وأيمان أننا سنلتزم بجميع الشروط المتقدمة، وأبرمت هذه الاتفاقية يوم ٢٨ حزيران فيما بين غيسور وتراي Trie».

واستلقى الآن لويس السابع مريضاً مرضاً شديداً في باريس، وقد أمر أن يجلب إلى أمامه جميع ذهبه، وكلّ فضته وجواهره وخواتمه، وثيابه الثمينة، وشارات زينته الملكية، ثم قام بناء على نصيحة أسقف باريس وراعي دير القديسة جينفف Genevieve بإصدار تعليماته بتوزيع ذلك كله بين الفقراء، وفي يوم ١٣ أيلول توفي، ودفن في دير تابع لرهبنة سسترشيان Cistercian يدعى باربو Barbeaux الذي كان قد بناه على نفقته الخاصة.

وجاء فيليب أيمري، وهو رجل من مواليد تور، إلى انكلترا، بناء على دعوة الملك له، وتولى مهمة اصلاح النقود، وهكذا جرى في ذلك الشتاء، في يوم ١١ تشرين الثاني سحب النقود القديمة، وحلّ محلها بالتداول في جميع أرجاء المملكة نقود جديدة شكلها دائري، وتقرر استخدامها في جميع مجالات الأعمال، وأسند إلى فيليب نفسه واجب مراقبة فوائد الخزينة، وهكذا بات عليه أن يكبح أساليب وخطط المزيفين، وعندما اكتشف أن الذين يتولون ضرب العملة يتلاعبون بالنقود، تعرض لنقد شديد، وعلى كلّ حال هو لم يتعرض لغضب الملك الذي حرره من خوف العقوبة، ومع هذا كله عزل من عمله وأعيد إلى فرنسا بدون وداع.

سنة إحدى وثمانين ومائة وألف

قيل اجتمع أربعة ملوك في معركة واحدة، وماهو أكثر إثارة وعجباً أن أربعة اجتمعوا بسلام في مؤتمر وغادروه متفقين وهؤلاء هم: فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وهنري ابن ملك انكلترا، ووليم ملك اسكوتلندا، لقد جاءوا واجتمعوا معاً، ثم افترقوا بسلام، وقرر فيليب ملك فرنسا، بناء على نصائح ملحة واقتراحات متتابعة أن يحذو حذو هنري ملك انكلترا، الذي تدبر ممارسة الحكم فوق مملكته الواسعة، مع أنها كانت مهددة بغارات السكوتلنديين والويلزيين المتوحشين، ومن أجل أن يتعلم بدقة أكثر مذاهب هذا الملك، قرر بناء على نصائح مستشاريه الداخليين، أن يخضع نفسه تماماً لتوجيه هنري وقيادته.

ووضع ملك انكلترا الكبير جميع نورماندي تحت اشراف ولده الملك الصغير، وأوعز إلى جميع وزراء تلك البلاد بطاعته، وتركه ليتولى المراقبة العامة مع الحماية لفيليب ملك فرنسا، إذا ما اقتضت الحاجة، والآن وجميع المقاطعات كانت تدار وفقاً لرغباته ولقوانينه السلمية، وكانت كلها تتمتع بفوائد السلم الذي جاء بوساطة حكمه، عاد إلى انكلترا يوم ٢٨تموز، وقام بزيارة كانتربري وهناك صلى ووهب صلواته للقديس توماس.

وعندما سمع فيليب كونت فلاندرز كيف أن فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا متعايشان بشكل حميم، جند أكبر عدد تهيأ له من الفلمنكيين حتى يتمكن من القتال ضد مولاه الاقطاعي، وأعلن أن الأمور قد وصلت إلى نقطة بات عليهم فيها إما تدمير حصون أعدائهم، أو أسرهم ومن ثم إرغام الملك على التسليم والتفاوض، وحاول الآن أكثر من هذا فبعث برسل إلى فردريك امبراطور الألمان، ثم ذهب إليه

شخصياً لاقناعه بالوقوف ضد ملك فرنسا، ومدّ حدود مملكته إلى القنال الانكليزي، وهكذا لم يقم الكونت فيليب رعاية إلى العمر الغض لمولاه الملك، وتناسى تماماً العهود التي أكدها للملك لويس في أنه سيراقب الأمور وسيتولى حماية ابنه وتوجيهه إلى ماهو صحيح، وهنا هاجم نويون Noyon مع أكبر قوة استطاع حشدها وقد عاثوا فساداً في المنطقة الموجودة حول سنلس Senlis فهدموا البيوت واقتلعوا الكروم.

وكان هنري الملك الشاب ابن الملك الكبير، ورتشارد دوق أكوتين، وغيوفري دوق بريتاني —ثلاثة أولاد يحملون شهادة على انجاب أمهم— متشوقين إلى شغل الفراغ الناجم عن غياب أبيهم، بتقديم البرهان على شجاعتهم، وقد خططوا للتصدي بكل ماأوتوه من قوة لخطط هؤلاء الرجال الأشرار، الذين يرغبون بالتسلط على الملك البريء، ملك فرنسا الشاب، وحشدوا ثلاث قوى من جميع أرجاء البلاد، وجاءوا بمثابة قوة واحدة لمساعدته.

وقرروا أولاً أن يتخلصوا من كونت ستيفن، السيد الشرير لقلعة سانسير Sancerre وتمكنوا في أيام قليلة من نهب ممتلكاته وتدميرها، مع بلداته وقلاعه وأراضيه، وأعطوا بمثابة غنيمة نحو خمسة آلاف آلة فلاحة مع ثيرانها إلى شعب برابانت، وبما أن قوات الكونت كان مُتفوق عليها وكانت غير قادرة على المقاومة، فقد انكب الكونت على قدمي ابن أخته الملك فيليب وسأله العفو والمغفرة ونال ذلك منه تجاه أعماله العدوانيّة، وتحرك الملكان (فيليب وهنري الشاب) نحو الأمام ومعهما قواتهما، فألحقا خسائر فادحة بدوق بيرغندي، وبالكونتسة صاحبة شامبين التي كانت أختاً لكلا الملكين، وبأتباعهما، اللذين —ثانية— كانت قواتهما قد تم التفوق العددي عليها، ثم تحركا نحو الخلف شمالاً، فأرغما كونت فلاندرز على التراجع، وخشي الكونت من مواجهة الملك هنري ابن ملك انكلترا وجهاً لوجه، فأغلق على نفسه أبواب قلعة كريبي

Crepy واتخذ موقف الدفاع، وقد قيل لولا المشورة الخادعة التي تلقاها ملك انكلترا من مستشاريه لم تعق خططه، لجرى ارغام الكونت الذي اتخذ موقف الدفاع في قلعته، على الاستسلام، لأنه امتلك من الطعام مايكفي لعدة أيام فقط.

سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف

التقى فيليب ملك فرنسا مع ملكي انكلترا: الأب والابن، وفيليب كونت فلاندرز، والكونتات الذين جاءوا من جميع مناطق فرنسا، وكانوا بناء على نصائحه قد حنثوا بعهودهم تجاه مولاهم، التقوا في سنليس Senlis بعد عيد الفصح، وكان هناك هنري أسقف ألبانو وممثل البابا، ووليم رئيس أساقفة ريمس مع كثير من الأساقفة، ومن الممكن رؤية ماتفقوا عليه من الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى رتشارد أسقف ونشستر.. التحيات:

أعاد فيليب كونت فلاندرز بيرفورد Pierrefords إلى ملك فرنسا، وأعادها الملك إلى أسقف سواسون، وأعادها الأسقف إلى أغاثا أرملة هيوج أوف أوسي Oisi التي تملكتها بحق الوراثة، باقرار صحيح منه في بلاطه أو في بلاط الملك، وبقي كونت كليرمونت ورالف دي كوسي Chuci تماماً في أيدي ملك فرنسا، محررين من كونت فلاندرز، وحلل فيليب كونت فلاندرز ابني هنري من جميع الاتفاقات المعقودة بينهما، ووافق على وجوب قيام بارونات الفلمنكيين بالخدمة لدي مقابل أجر أعطيهم إياه، وسيفقدون ايجاراتهم بدون تعويض إذا لم يقوموا بخدمتي، واتفقنا زيادة على هذا أن لايفقد أحد من رجاله أراضيه في فلاندرز بسبب خدمتهم لي،

وذلك إذا ماجاءوا لخدمتي في أراضيّ، ومادام قد عاد كلّ شيء إلى السلام، فالذين تخلوا عن الولاء والتبعية لملك فرنسا، سوف يعودون إلى الخضوع له، وذلك بناء على رأي وعمل ملك الانكليز، وتمت تسوية مسألة الأضرار على كلا الطرفين بتعويضات متبادلة».

وبينما كان روجر رئيس أساقفة يورك حياً، طلب من البابا الاسكندر الامتياز التالي:

إذا ماقام واحد من رجال الدين العاملين تحت ادارته بكتابة وصية وهو على فراش الموت، لكنه لم يوزع ممتلكاته بيديه، لرئيس الأساقفة الحق في أن يضع يديه على مقتنيات الرجل الميت، وبما أنه يتوجب على كلّ من يصدر قرارات قانونية حول انسان آخر، أن يتنبه لنفسه،هكذا نفذ حكم الله العادل، فبعد وفاة رئيس الأساقفة جرت مصادرة كلّ شيء وجد في خزانته، وبلغ هذا أحد عشر جنيهاً من فضة العملة القديمة، وثلاثمائة قطعة ذهبية، وطشت من الذهب، وسبعة طشوت من الفضة، وتسعة كؤوس من الفضة، وثلاثة طشوت من خشب القيقب، وثلاثة ممالح من الفضة، وأربعين ملعقة من الفضة، وثمانية صحون من الفضة، ووعاء كبير من الفضة وقواعد فضية.

وثار هنري دوق السكسون، وزوج ماتيلدا كبرى بنات ملك انكلترا، ضد فيليب رئيس أساقفة كولون، وسبب له مضاراً كبيرة جداً، وحشد رئيس الأساقفة قوى من جميع المناطق من حوله، وقاوم الدوق برجولة، وتلقى العون والعناية من الامبراطور، وتطورت الأمور بشكل وصل إلى حد أنه عندما أعلن قرار جميع أمراء الامبراطورية، أرغم الدوق على الخضوع للنفي، فجاء إلى ختنه في نورماندي ومعه الدوقة مع اثنين من أولاده: هنري وأوتو، وابنة كانت في سن الزواج، أما الابن الثالث ويدعى لوثر فقد بقي في ألمانيا، وقد استقبل هناك بحفاوة، ومكث هناك أكثر من ثلاث سنوات وهو يلقى الرعاية والعناية والكرم الملكي.

سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٤٣ توفي جون بورفيروجنتوس Porphyrogenitus امبراطور القسطنطينية، متسمماً في أنطاكية، مخلفاً وراءه ولدين، وقد اختفى الابن الأكبر مخلفاً ولداً اسمه أندرونيكوس، وجرى تعيين الابن الأصغر، أي مانويل، امبراطوراً، ذلك أنه كان أكثر شعبية لدى الاغريق.

وتوفي الآن في حوالي هذا الوقت مانويل في القسطنطينية، بعدما حكم لحوالي أربعين سنة، تاركاً وريثاً له ابنه الأصغر ألكسيوس، الذي كان قد رزق به من ابنة الأمير ريموند، أمير أنطاكية، الذي كان عم إليانور صاحبة أكوتين، وتظاهر أندرونيكوس بالسلام، فجاء إلى القسطنطينية وأقسم يمين التبعية لألكسيوس في كنيسة أياصوفيا، ووضع التاج الملكي على رأس ألكسيوس، وركب وسار خلال المدينة وألكسيوس على كتفيه.

لكن مالبث أندرونيكوس أن غير سياسته: فذبح بشكل وحشي البروتوفستياروس Protovestiarus [المسؤول عن القصر]، وقتل الامبراطورة، أم ألكسيوس، وكلّ واحد عرف أنه كان مخلصاً للامبراطور مانويل، واغتصب العرش لنفسه، وقد قيل إنه أغرق ألكسيوس ثم تزوج من أرملته، يعني أغنس ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا.

وفيما أجاب الموت البشري على كلّ إيماءة عملها الملك الكبير حول كلّ شيء تقريباً، كان هذا الملك حريصاً على ممارسة توقعاته من أجل ازدهاره، خشية أن يتبدد كلّ شيء مفيد للسلام، وكان قلقاً حول إقامة سلام أكثر ثباتاً بين أولاده، وذلك حتى يتجنب الخصام بين الأخوة الذي هو أمر طبيعي في كثير من الأجيال، وهكذا سأل الملك الشاب أن يتلقى الولاء والتبعية من أخيه غيوفري من أجل دوقية بريتاني، التي تملكها غيوفري بمثابة بائنة —دوطة— لزوجته كونستانس، وكانت الابنة

الوحيدة والوريثة لكونت كونان Conan وكان كونتات بريتاني مرتبطين منذ قديم الزمان برباط الخضوع هذا لدوقات نورماندي، من خلال منحة من ملوك فرنسا.

وجرى تنفيذ ماطلبه الأب في أنغر Angers وحتى يعقد الأب الأمور أكثر، طلب بعد ذلك من ابنه هنري أن يتخلى لأخيه رتشارد عن دوقية أكوتين حتى يتملكها رتشارد وورثته بشكل دائم، ثم أعلن الملك الشاب أخيراً لوالده أنه متحالف مع عدد كبير من بارونات أكوتين ضد أخيه رتشارد، وأنه التجأ إلى هذا في الوقت الذي قام فيه رتشارد، ضد رغباته ومصالحه، بتحصين قلعة كليرفو Clairvaux بشكل كبير، وهذه القلعة قد كانت من أقدم الأزمنة خاضعة لكونتات أنجو،

لكن حتى لايزعج والده، أقسم بكل تأكيد على كلّ ماسأله والده، وكان ذلك في ميربو Mirebeauواشترط أن يقوم رتشارد بعدما يقدم له الولاء والتبعية أن يقسم أيضاً على التبعية له على الآثار المقدسة، ولدى سماع هذا، انفجر رتشارد غاضباً، وقال كما يبدو: بما أنه انحدر من الأب نفسه ومن الأم نفسها مثله مثل أخيه، لايجوز بالنسبة له الاعتراف بأخيه الأكبر منه بالتفوق عليه مع نوع من الخضوع، لكن بحكم قانون المنفعة للأخ الأكبر الحق بالأشياء العائدة للأب، ثم ادعى حقاً مساوياً لأخيه في الأشياء العائدة للأم.

وعندما سمع الملك الأب هذا انفجر غاضباً، وهدد بخلق المتاعب لرتشارد، وقال بصيغة توبيخ بأن الملك الشاب كان على وشك القيام بتأديب رتشارد وإزالة غطرسته، وطلب من غيوفري دوق بريتاني الوقوف باخلاص إلى جانب أخيه بحكم أنه مولاه الاقطاعي، وهكذا حمل الملك الشاب السلاح ليس ضد والده، كما فعل ذلك مراراً، بل ليقدم العون

إلى البوتيفيين Poitevins الـذين كـان رتشـارد يتـولى ظلمهم بعنف ويغير عليهم بشكل غير عادل، وهـؤلاء البوتيفيون كـانوا يقاتلون ليكـونوا خاضعين لـه بموجب القانون العـام، دون أن يكون أي واحد من أخـوته متسلطاً عليه.

ولقد تحدثـوا فيما بينهم، لكن عندمـا لم تظهر بـارقة أمل بـالسلام، جمع الملك الشـاب جيشـاً كبيراً، وتـرك والده الـذي يعـرف أن حكم أكـوتين عائد إليـه طوال حياتـه، وأمر جميع حلفائه حيثما كـانوا وأينما كانـوا وكان عددهم بالالتحاق به للقتال ضـد رتشارد، لكن حدث أن حياته قطعت وهي قصيرة، وكأنها قطعت بيد حـائك، وانقطعت معها آمـال عدد كبير كانوا يقاتلون من أجله ويأملون بالحكم معه بعد وفاة والده.

فالذي حـدث أنه في يوم ١١حزيران، في منطقـة تدعى تورين Tu-renne في غسكـوني، بين أناس متخلفين تمامـاً في قلعـة مارتل، تـوفي هنـري الملك الشـاب، بعـدمـا عـاش ثمان وعشرين سنـة، وأربعـة عشر أسبـوعاً وستـة أيام، تـاركـاً للرأي الحكيم الموافقـة على أن الأبناء الـذين يثورون ضد آبائهم، الذين يـدينون بكل شيء لهم: بوجودهم وبما يعيشون منه، وبمن من ثرواتهم يتـوقع أن يصبحوا أغنياء، جديـرون فقط بالحرمان من الميراث.

ودهن جسـد الملك الشاب بكل عنـاية، ولف بـالأردية الكتانيـة التي لبسهـا وقت تتـويجه، وحمل على أكتـاف رفـاقـه خـلال القـرى والقـلاع والبلـدات، والنـاس يهرعـون من كلّ جـانب للنظـر، حتـى وصلـوا إلى لامانس، حيث وضع في شرفـة جوقة المرتلين في كنيسة القديـس جوليان، وهرع أعيـان البلدة فجأة إلى الكنيسة، وبموافقـة شعبية عامـة جرى دفن جسد الملـك هناك بسرعـة، وذلك مثلما رقد جسـد جده لأبيـه في المكان نفسـه، لكن نقل فيما بعـد إلى روان بناء على طلب روبـرت عميـد روان، لأن الملك عندما كان حياً اختـار ذلك المكان ليكون موضع دفنه، وأدخل

بالتوقير اللائق بأمير إلى كاتدرائية روان ووضع على الجانب الشمالي للمذبح المرتفع.

سنة أربع وثمانين ومائة وألف

وبعدما رتب ملك الانكليز جميع المقاطعات التي تحت حكمه وفقاً لرغباته، وباتت جميع رعاياه تتمتع بمنح السلام، عبر إلى انكلترا في ١١ حزيران، وعبر خلال فلاندرز بأذن وترحاب من الملك الفرنسي وقدم في هذه الآونة دوق سكسوني مع بيته وحاشيته ومقتنياته إلى انكلترا، وبعد أيام قليلة ولدت الدوقة في ونشستر ولداً ذكراً أطلق عليه اسم وليم.

وجاء فيليب رئيس أساقفة كولون برفقة فيليب كونت فلاندرز في رحلته إلى انكلترا ليقدم الصلوات إلى القديس توماس في كانتربري، وقدم الملك لاستقبال رئيس الأساقفة والكونت، وطلب منهما السفر حتى لندن، وعندما وصلا استقبلا استقبالاً لانظير له، وكانت المدينة مليئة بالزينة، وكانت الشوارع مكتظة بحشود مسرورة، وجرى الترحيب بالزائرين بحفاوة وسرور عظيمين، ورافق رئيس الأساقفة موكب رسمي، وتم الترحيب به في كاتدرائية القديس بولص، كما واستقبل في وستمنستر أيضاً، في اليوم نفسه، وكان هنالك موكب رسمي آخر مع تزيينات ملكية رائعة، وكان الانفاق كبيراً، وقدمت في الموائد العظيمة أطعمة أكثر مما يستطيع الضيوف تناوله، ومكث رئيس الأساقفة خمسة أيام بمثابة ضيف في القصر الملكي في وستمنستر، وعندما غادر أتحف بكثير من الهدايا.

واعترف البابا برهبانية سانتياغو Santiago العسكرية، وتميز هؤلاء الجنود عن الآخرين بالسيف الأحمر الذي كان شعارهم —رنكهم— وكانت قاعدتهم في اسبانيا، وكان المطلوب منهم استخدام

طاقاتهم في الصراع ضد المسلمين.

ومات أرنولد مقدم فرسان الداوية في فيرونا Verona.

سنة خمس وثمانين ومائة وألف

قام هرقل بطريرك القدس مع روجر مقدم بيت الاسبتارية، برحلة إلى الغرب، وقد هتافرا خلال ايطاليا إلى فرنسا يطلبان العون، لكن ليس من المولى البابا، ولا من امبراطور الرومان ولامن ملك فرنسا، وعوضاً عن ذلك أبحرا إلى انكلترا، وقدما إلى الملك في ردنغ وقد شرحا الأسباب التي حدت بهما للقيام برحلتهما الكبيرة (فهي رحلة لم يكن لها نظير) ورويا بالتفصيل المضار العظيمة التي لحقت بالمدينة المقدسة، وقد حركا عواطف الجماعة كلها، ودفعا الملك وجميع الحضور إلى التنهد والدموع، ووضعا بين يدي الملك بعض الأشياء التذكارية المتعلقة بميلاد يسوع المسيح، وبآلامه ثم بقيامته، ذلك أنهم أعطوه قطعة من صليب الصلبوت، ومفاتيح برج داود، ومفاتيح كنيسة القيامة، وعرض الملك هذه الأشياء كلها بتبجيل عظيم.

وجرى تنصيب رتشارد، الرئيس الجديد لأساقفة كانتربري يوم ١٩أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام غداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف

١٩أيار، وتـم استقباله بموكـب مهيب في دير القديـس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦أيار.

وعندمـا كان هربـرت، وهو رجل انكليزي مـن مدلسكس، مسـافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثـم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف برئيـس الأساقفة، ورجـال كنيسته وأهل بيتـه وحاشيته وجـزء كبير من المدينـة، وجرى تهديـم عدد كبير مـن القلاع وتعـرض كثير من النـاس للقتل، واختفت مدينة وغرقت في البحر الأدرياتيكي بكاملها أثناء الليل عنـدما كـان جميع النـاس نيـام، وكان هنـاك زلزال في انكلترا أيضـاً، في الشمال، وتهدمت بعض الأبنية في بعض الأماكن.

وكان هناك خسوف للشمس في بعد ظهر يوم ١أيار.

وزار ملـك فـرنسـا ملـك انكلترا الـذي كان مـريضـاً في بيـوفـويـر Beauvoir يوم ٩تشرين الثاني ومكث لمدة ثلاثة أيام.

سنة ست وثمانين ومائة وألف

في ٢٧كـانون الثـاني تـوج رئيـس أساقفـة فينـا فـردريك امبراطـوراً للامبراطورية الـرومانية المقدسة، وكان ذلـك في ميلان، وفي اليوم نفسه توج بطريرك أكويلا aquileia هنري ملكاً للألمان، وقد دعي منذ ذلك اليوم بلقب قيصر، وتولى أسقف ألماني تتويج كونستانس عمة وليم صاحب صقلية، وجرى هذا في دير القديس أمبروغيو Ambrogio.

واجتمع الملكـان الفرنسي والانكليـزي، وكونت فـلاندرز، وكـونتسة

شامبين، ومرغـريت أرملة الملك هنري الشاب، في غيسـور يوم ١٠أيار، ونوقش الخلاف بين ملك انكلترا، ومرغريت حول بائنتها —دوطتها— وحول حصة الزواج، وجرى التوصل إلى تسوية مصالحة.

وكان هناك خسوف للقمر يوم ١٦نيسان بعد غياب الشمس مباشرة، وكسوف للشمس يوم ٢١نيسان، بعد الفجر مباشرة.

واستولى الملـك هنري على قلاع أكوتين التـي كانت على درجة عـالية من الحصـانة بفضـل الطبيعة وبراعـة الانسان، وأعطـاهم للشحـن التي أرادها، ومع أن رتشارد كـونت بواتو كان مغضباً جـداً لم يشتك لوالده، وهكذا مـع تمتع انجو، وتـورين، ومين، وبريتاني، ونـورماندي، بـالأمن والهدوء، عـاد الملـك إلى انكلترا، ونـزل سعيـداً في ثـاوثـأمبتـون يـوم ٢٧نيسان، وعبرت الملكة مع الملك على المركب نفسه.

وبعـد نـزول الملـك إلى اليـابسـة، زار أسقـف ونشستر في مـارول Marwell وأمضى الليـل في ونشستر، وكان رئيس أسـاقفة كـانتربري قادمـاً لرؤيـة الملك، وعندمـا سمع الملـك بذلك بـادر مسرعاً للقـاء به، وأظهر لـه كلّ احترام يستحقه، وفي هذا المقـام تجاوز تواضعه ومـااعتاد عليـه أجداده، وجـرى استقبال رئيـس الأسـاقفة في مـوكب مهيـب في ونشستر يوم ١أيار.

وتوفي غيوفري دوق بريتـاني، ابن ملك انكلترا يوم ١٨آب، وكان في الثامنـة والعشرين من عمـره، ودفن في شرفـة جوقة المرتلين في نـوتردام باريس، وخلف ابنتين من زوجته كونستانـس ابنة كونت كونان صاحب بريتاني.

وعادت مـرغريـت أخت الملك فيليـب، ملك فـرنسا وأرملـة هنري الملك الشـاب، إلى باريـس مع قطار كبير، وكـان ذلك يـوم ٢٤آب، ثم تزوجت بعد هذا من بيلا ملك هنغاريا، ودلماشيا، وكرواتيا، وراما.

وبناء على أوامر من الملك اجتمع رتشارد عميد لنكولن ومعظم رجاله في آينشام يوم ٢٤أيار، وبعد اجتماع طويل حول مشاكل كنيستهم، جرى انتخاب هيوج —وهو بيرغندي من غرونوبل، كان رئيساً لرهبانية كارثوشيان Carthusian في انكلترا— أسقفاً للنكولن، وكان ذلك بحضور عدة أساقفة، وتم ارسال عدة رسل إلى بيرغندي لإخبار رئيس رهبانية دير لى غراند تشارترو Chartreus الذي أعطى موافقته، وهكذا رسم هيوج، الذي تمتع بشعبية واسعة، أسقفاً للنكولن يوم ٢١أيلول في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

بحث آدم أوف آينشام في مسألة انتخاب أسقف لنكولن، وتتبع بوصف حي سيامته وتعميده.

كان هذا الكرسي المقدس شاغراً منذ قرابة الثمانية عشرة سنة، وأدرك الملك ملامته تجاه أوضاعه المهملة، وأن شعوره المحزن يرجع بشكل واضح لعدم اهتمامه به، ولهذا قرر بذل مجهوده لتدارك واصلاح الفوضى التي نجمت عن طول الاهمال، وذلك من خلال العناية باختيار راع نشيط.

وبما أن رجال الدين كانوا منقسمين بشكل لا أمل بتداركه، فقد قيل:

إن كلّ واحد منهم رغب بانتخابه هو ولاأحد سواه، وحثهم عدد كبير من الناس ونصحوهم بمحاولة الحصول على هيوج راعي وايتهام ليكون أسقفاً لهم، ذلك أنه كان رجلاً متميزاً بمحاسنه، وقد أثنى كثير من القوم على قداسته وحكمته، ورفعوا جاذبيته وتقواه إلى السموات، واتفق الجميع على أنه كان هو الشخص الوحيد الذي حوى الفضائل كلها مع أصالة المولد، وكان هناك اتفاق عام أنه لايمكن ايجاد أسقف مناسب أكثر منه.

أما وقد وصف هذا من قبل جيرالد رئيس شمامسة القديس داود،

وذلك بين بعض الحوادث الأخرى الهامة المرتبطة بالقديس، يبدو من المفيد نقل كلماته واقتباسها، فهاكم روايته:

«وفي العودة إلى أسقف لنكولن، أعتقد أن عليّ عدم حذف حادثة لاشك أنه أريد بها أن تكون شارة وبشارة حول معاني قدومه، ففي اليوم —أو قريباً منه— الذي توج فيه هيوج أسقفاً للنكولن، كان هناك قرب عزبته على مقربة من ستو Stow التي تقع على مسافة تقارب الثمانية أميال من لنكولن، بقعة جميلة محاطة بالأشجار والبحيرات، وصلت إليها فجأة بجعة لم تر هناك من قبل، وقد تمكنت خلال أيام من قتال وقتل البجعات الأخريات هناك، وذلك بفضل وزنها وحجمها، واستبقت ذكراً واحداً،أبقته للصحبة وليس بقصد الانجاب ، وكانت هذه البجعة أكبر من بقية البجعات مثلما تكون البجعة عادة أكبر من البطة، ولكنها شابهت في كلّ شيء آخر في لونها وبياضها بجعة عادية، باستثناء أنها لم تمتلك العرف الأسود والمنتفخ، الذي يوجد عادة فوق المنقار، وبدلاً من ذلك كان ذلك الجزء من المنقار عريضاً وبراقاً، ولونه أصفر، وكذلك كان رأسها والجزء الأعلى من رقبتها.

وما ان وصل الأسقف إلى قصره للمرة الأولى، حتى تحول هذا الطائر الملكي في مظهره غير الاعتيادي وحجمه، بشكل مفاجيء إلى طائر مدجن تماماً، فقد ترك نفسه يُمسك بدون صعوبة، وقد حمل إلى الأسقف لينظر إليه، وقد سمح له على الفور باطعامه، وبقي معه بمثابة حيوان أليف، وبدا بعد وقت قصير أنه فقد توحشه، ولم ينأى عن ملاحظته، لابل بدا أنه لايعبأ بالأصوات الصادرة عن الحشود في كلّ مكان، ولايهتم بسواد المشاهدين الذين يأتون ويذهبون بشكل متواصل، واعتاد هذا الطائر عندما كان الأسقف يتولى اطعامه أن يدس رقبته

الطويلة في الفتحة الواسعة لكم قميصه، وهكذا ارتاح رأسه على الطيات الداخلية، وكان يمكث هكذا لبعض الوقت يتنفس بلطف، وكأنه يتكلم بغرام وسعادة مع صاحبه، ويطلب شيئاً ما منه.

وزيادة على هذا ذكر الموظفون ومساعدوهم الذين كانوا مسؤولين عن العزبة، أن الطائر كان يظهر نشاطاً عظيماً ليس معتاداً قبيل عودة الأسقف من سفر كان بالعادة يغيب فيه ثلاثة أيام أو أربعة، فكان يطير على وجه النهر، ويضرب الماء بجناحيه، ويصدر أثناء ذلك أصواتاً عالية، وكان يقوم من وقت إلى آخر بمغادرة الماء، ويسرع إلى الدخول إما إلى القاعة أو إلى البوابة، وكأنه ذاهب لمقابلة صاحبه لدى وصوله، ومن المتصور أنه كان مثله مثل طيور السماء حساس جداً بسبب طبائعهم الاحترازية، وكذلك هم يتوقعون وقوع تغييرات في عناصر الهواء أو حدوث حوادث قبل وقوعها، ويبدو ذلك من تصرفاتهم، ولعل هذا الطائر كان يعرف قرب وصول مولاه بالغريزة من استعدادات ونشاط خدمه، ومثير للانتباه، أنه كان على كلّ حال صديقاً وأليفاً مع واحد فقط هو الأسقف، وفي الحقيقة، أبقى كلّ انسان، كما رأيت بنفسي، بعيداً عن مولاه، عندما كان معه، بالتصويت عليهم، أو بتهديدهم بجناحيه ومنقاره، كما كان ينعق بصّوت مرتفع كما كانت عادته مع البجعات، وبدا كلّ ذلك وكأنه قرر أن يوضح تماماً أنه يعود له فقط، وأنه كان رمزاً مكرساً فقط للقديس وحده.

وعندما زار الأسقف ذلك المكان في عيد الفصح الأخير الذي حل قبل رحيله من الأرض، لم يكتف الطائر بعدم القدوم لمقابلته كما هي العادة، بل إنه رفض أن يغادر البقعة التي كان يسبح فيها، حتى يجلب إليه، وكان مدهشاً لكل انسان، أنه مكث فوق الماء ينظر بحزن وكأنه مريض، وكانت حركاته واهنة، وأخيراً أمر الأسقف أن يجلب إليه، أرضي أم لم يرض، ولمدة ثلاثة أيام حاول عدد كبير من الناس بصعوبة

فعل ذلك، لكن جاءت جهودهم بلاثمار، وأمسك في النهاية بين بعض النباتات النامية الكثيفة في منطقة نائية من البحيرة هناك حيث كان قد التجأ خوفاً من الامساك به، وعندما أحضر إلى الأسقف كان مدلى الرأس، وتنبعث منه رائحة التعاسة، وصورته صورة الحزن، وكانت واقعة غريبة أدهشت كلّ من رآها.

وكانت زيارة الأسقف قصيرة جداً، وبعد ستة أشهر سار على طريق جميع الأجساد، ولم ير ثانية من قبل صديقه الطائر، وعند ذلك لاحظ الذين تفكروا حول المسألة أن الأجواء الحزينة كان معناها أنه سيودع حزيناً قريباً مولاه لآخر مرة، ولقد عاش بعده، على كلّ حال، لمدة طويلة».

وعلى الرغم من أن هدفي العظيم تجنيب قرائي التعب بالدوران معهم طويلاً، أعتقد أن عليّ أن أبين أنه كان أقل اعتدالاً في قضية الطعام بعد وصوله إلى مركز الأسقفية، مما اعتاد عليه من قبل، فهو لم يلمس اللحوم سواء في مرض أو في صحة، لكن كثيراً ماأكل السمك، ولم يتمنع عن الخمرة كلياً، بل شربها باعتدال لحاجات الجسد الضعيف وذلك حسبما نصح الرسول، وكذلك رغبة منه في أن يضرب مثلاً في أن كلّ شيء لكل الناس، وابتغى أيضاً أدباً وتيسيراً أن يجعل الذين كانوا يأكلون معه مرتاحين ولايشعرون بالحرج، فقد كان يجلس إلى المائدة مسروراً وفيه حيوية، ولكن بالوقت نفسه كان حزيناً متحرزاً، متذكراً على الدوام، لابل ناقلاً للذين حثوه على أن يكون مسروراً، النص الذي جاء في سفر إستير وفيه: «جعلنا جمال القديسيين مسرورين»، وإذا ماحدث أحياناً في الحفلات الكبرى سواء في بيته أو عندما يكون ضيفاً في مكان آخر، وتكون هناك موسيقى أو تمثيل، كان يُظهر أعظم تمنع، فنادراً مارفع عينيه من على الأرض، وأظهرت كلّ كلمة أو حركة بدت منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل

كامل، وكأن مشاعره الخارجية هي فقط التي جذبت بهذه المتع الحلوة.

وبسبب براءته النقية، التي جعلته مخزناً عظيماً للاخلاص والبساطة، امتلك القديس عواطف غير عادية نحو الأطفال، بسبب سذاجتهم الكاملة، وبهذا شابه كاتب الكمال الذي قال لمريديه:

«دعوا الأطفال الصغار يأتون إليّ ولاتمنعونهم فبهم ومعهم مملكة السموات»، وكان حيثما وجدهم، لاطفهم بمحبة وبحنان ملائكي، لابل حتى عندما كانوا لايستطيعون الكلام، ويصدرون أصواتاً مؤثرة، واعتاد على أن يرسم علامة الصليب على جباههم وعلى أفواههم وعيونهم، ويباركهم مرات ومرات، ويصلي لسعادتهم وتقدمهم، وكانوا هم بدورهم يغدون أصدقاء له بسرعة مدهشة، حتى الذين بالعادة كانوا يخافون من كلّ انسان تقريباً، كانوا يقبلون عليه بجاهزية أكثر من إقبالهم على آبائهم.

ولقد رأيت طفلاً كان عمره حوالي الستة أشهر، عندما رسم على جبينه علامة الصليب بالزيت المقدس، عبرّ عن سرور عظيم بتحريك أطرافه، حيث ذكرنا هذا بسرور التعميد، والقفز داخل جرن المعمودية، واسترخى الفم الصغير والوجه في حالة ابتسامة مستمرة، وبدا أمراً لايكاد يصدق أنه في السن الذي عادة يصرخ فيه الأطفال ويبكون أمكن لهذا الطفل أن يضحك بهذه الطريقة، ثم انحنى ومدّ نحو الخارج ذراعيه الصغيرين وكأنه يحاول الطيران، وحرك رأسه إلى الأمام والخلف، وكأنه أراد أن يظهر أن سروره كان أعظم مما يستطيع تحمله، ثم أخذ يده بيديه الصغيرتين، وبذل جهد طاقته ليرفعها نحو وجهه، ثم تابع لعقها عوضاً عن تقبيلها، وقد فعل ذلك لوقت طويل، وكان الحضور مندهشين برؤية المنظر غير الاعتيادي للأسقف والرضيع وهما مسرورين برفقة بعضهما، وأعطى الأسقف الطفل تفاحة وعدة أشياء أخرى يحبها الأطفال بالعادة، لكنه رفض ابداء السرور بها، وبدا أنه

مستغرق ومندهش بالأسقف، ودفع بشدة يدي الممرضة التي كانت تمسكه، وحدق بشدة نحو الأسقف وصفق بيديه وهو يبتسم طوال الوقت.

وعندما أبعد أخيراً، عبرت الجماعة عن دهشتها تجاه هذا المشهد غير الاعتيادي، وأعلنت أنها لم تشهد قط مخلوقاً صغيراً بهذا الحجم يعبرّ عن مثل هذا السرور العظيم.

وعندما كان هيوج في دير فيكامب Fecamp . الواسع الشهرة حصل بالعض على قطعتين صغيرتين من عظم ذراع مريم المجدلية، الأعظم قداسة بين محبي المسيح، ولم ير أحد هذا العظم قط وهو معرى مما لفّ به، سواء في ذلك راعي الدير أو الرهبان الذين كانوا حضوراً في تلك المناسبة، لأنه كان محاطاً بإحكام بثلاث قطع أقمشة، اثنتان من الحرير وواحدة من الكتان العادي.

وهم لم يتجرأوا حتى على الموافقة على توسلات الأسقف لرؤيته، ومهما يكن الحال، أخذ الأسقف سكيناً من واحد من الموثقين، وقطع بها بسرعة الخيط وكشف اللفائف، وبعدما تفحص العظم بكل تبجيل وقبله بكل تقديس حاول بلا نجاح كسره بأصابعه، وعندها عضه أولاً بقواطعه وأخيراً بأضراسه، وبهذه الطريقة اقتطع قطعتين صغيرتين منه، وناولهما على الفور إلى الموثق قائلاً له: «اعتن بهاتين القطعتين من أجلي عناية خاصة».

وعندما رأى راعي الدير والرهبان ماحدث، أصيبوا أولاً بالرعب، ثم استبد بهم غضب شديد، وصرخوا قائلين:

«ماهذا الاثم العظيم، لقد اعتقدنا أن الأسقف طلب أن يرى هذا الأثر المقدس والمبجل لأسباب تعبدية، فغرس أسنانه به وقضمه كأنه كلب»! وسكّن غضبهم بكلمات ملطفة، وجزء من كلامه جدير

بالتسجيل، من ذلك قوله:

«إذا كنت قمت منذ وقت وجيز مضى بحمل الجسد الأعظم قداسة، جسد مولى جميع القديسين، بأصابعي، وذلك على الرغم من عدم جدارتي، وعندما تركته لمسته بشفتاي وأسناني، فلماذا يتوجب عليّ ألا أغامر في أن أعامل بالطريقة نفسها عظام القديسين من أجل حمايتي، فبهذه الذكرى منهم تضاعف احترامي لهم وتبجيلي، وحصلت بدون تدنيس عليهم عندما توفرت الفرصة لي»؟.

سنة سبع وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٨٧، كما أوضح ديسيتو كان الملكان الانكليزي والفرنسي يستعدان مرة جديدة للحرب.

وفيما مملكته تتمتع بمنح السلام، عبر الملك هنري القنال من دوفر يوم ١٧ شباط، ومضى من خلال فلاندرز، ومكث في قلعة اسمها هيسدن Hesdin ودخل بعد ثلاثة أيام إلى نورماندي إلى درينكورت Drincourt.

وولدت كونستانس كونتسة بريتاني، التي كانت حاملاً وقت موت زوجها غيوفري ابن ملك انكلترا، ولداً ذكراً سماه البريتانيون آرثر.

وبينما كان ملكا فرنسا وانكلترا يحشدان الجيوش في بورغز Bourges ويعبئان قواتهما ويسلحانها من أجل الحرب، عقدا هدنة في تشاتورو Chateauroux يوم ٢٣حزيران لمدة سنتين، وقد دفع كلّ منهما إلى الآخر تعويضات عن الأضرار، وذلك بدلاً من اخضاع

المسائل لحكم رب الحرب المشكوك به.

وولدت مرغريت ملكة فرنسا للملك فيليب ولداً ذكراً؟ أطلقت عليه اسم لويس.

وكتب فرسان الداوية الرسالة التالية إلى المسيحيين:

«يالـلأسف، مامن رسائل أو صوت نائح يمكنه أن يصف، أو أن يعدد المصائب التي أنزلها علينا غضب الرب، نتيجة لإثارته بذنوبنا، فلقد حشد الأتراك جيشاً كبيراً من شعبهم وغزوا المملكة المسيحية، وحشدنا نحن قواتنا، وزحفنا في يومي ٣و٤تموز وقاتلناهم، وتحركنا باتجاه طبرية التي استولوا عليها بالقوة، وذلك باستثناء القلعة فقط، ولقد ساقونا ناكثين نحو شعب جبلي مرعب جداً، وهزمنا هزيمة شنعاء حتى أن صليب الصلبوت تم الاستيلاء عليه، وقتل ملك القدس، وكذلك مقدمنا، ومعهما جميع جيشنا تقريباً واخواننا، ونحن على هذا نعتقد أن مائتين وثلاثين رجلاً قطعت رقابهم في ذلك اليوم، وذلك دون أن نذكر الستين الذين قتلوا في الأول من أيار، وكان كونت طرابلس، واللورد أرناط صاحب صيدا، واللورد بالين (أوف ابلين) ونحن أنفسنا قد نجونا من ذلك المعترك المأساوي، بكل صعوبة، ووصلنا من هناك ونحن ممرغون بالدم المسيحي.

وقد ذهبوا ومعهم جيشهم كله إلى عكا، ثم استولوا على مجمل المنطقة تقريباً، مبقين القدس وعسقلان وصور في أيدينا، وقد قتل جميع سكان هذه الأماكن في المعركة، ومالم تصلنا المساعدات الربانية وعون الناس الشرفاء بكل سرعة، لن نكون قادرين على الصمود في وجوههم، وصور محاصرة حصاراً شديداً في هذه اللحظة، وهم يقاتلونها باستمرار ليلاً ونهاراً، وهم في أعداد عظيمة إلى حد أن جميع المنطقة من صور إلى القدس نزولاً إلى غزة، تبدو وكأنها عش نمل».

وحمل رتشارد كونت بواتو، وابـن هنري الثاني، والأول بين بارونات فرنسا، الصليب وتناوله من يد رئيس أساقفة تور، وذلك دون أن يسأل أباه، أو ينتظر حتى يسمع رغباته.

سنة ثمان وثمانين ومائة وألف

التقى في ٢٢كـانون الثاني ملكـا الفرنسيين والانكليز للتـداول، وبعد نقاش طويل، كان الملـك الانكليزي الأول في تناول الصليب من رئيسي أسـاقفة صـور وروان، وبعد ذلـك تنـاول الملك الفـرنسي الصليب مـن رئيسي أساقفة صـور ورايمس، ثم أخذه فيليب أوف فـلاندرز، والتحق به أيضاً عـدد كبير، واتفقوا فيما بينهم على أن يرتدي الفرنسيـون صلباناً حمراء، والانكليـز صلبانـاً بيضـاء، والـذين هـم مـن فـلاندرز صلبـانـاً خضراء، وبعدما حمل الملـك الانكليزي الصليب أرسل محاسـب بلاطه، ورتشـارد بـاري Barre رئيـس شمامسة ليـزو Lisieux إلى امبراطوري روما والقسطنطينية.

وفي هذه الآونة قتل غيوفري أوف لوزغنان Lusignan صديقاً لرتشارد كونت بواتو في كمين نصبـه له، وحمل الكونت رتشارد السلاح لانـزال العقوبـة بمقترفي هـذه الجريمة، وقـام وهو يتـذكـر أنه قـد حمل الصليـب، بالسماح لمن أراد مـن رجـال غيـوفري حمل الصليـب، بفعـل ذلك، وقتل عدداً كبيراً وجعلهم طعمـة للسيف، واستولى على عدد كبير مـن القـلاع، وثبـت غيوفـري لاعتماده على القـوة والمال، الـذي —كما قيل— جاءه من الملك الانكليزي، وقـاوم الكونت وتقدم بعض الشيء، ولهذا السبب ابتعد رتشارد كونت أوف بواتـو عن أبيه، ودخل الكونت رتشارد إلى بـلاد غسكوني، وهاجـم كونت طـولوز، وتمكن خـلال مدة

وجيزة من الاستيلاء على سبع عشرة قلعة في منطقة طولوز، لكن بعدما تلقى الدعم من البرابانكونيين، وغضب ملك فرنسا غضباً شديداً لإقدام رتشارد كونت بواتو على الهجوم على مملكته، وفاجأ قلعة تشاتورو Chateauroux في بيري يوم ١٦ حزيران وأرغم سكانها على تقديم ولاء التبعية له، وبدا هذا كله غير لائق تماماً بالملك، لاسيما بعدما حمل الصليب، لذلك عبر ملك انكلترا إلى انكلترا، بعدما أودع جميع أراضيه في حفظ ملك فرنسا، الذي تلقى الوصاية بإيمان طيب.

ثم كسب ملك فرنسا إلى جانبه بالوعد والوعيد بعض حفظة القلاع الذين كانوا خاضعين للملك الانكليزي، وعندما سمع الملك هنري بهذا عبر إلى فرنسا في حوالي ٢٥ تموز، وحشد جيشاً كبيراً من الانكليز، ومن التخوم، ومن الويلزيين والبريتانيين، غير أنه أبقاهم متوقفين لأيام كثيرة يعيشون في الخيام في نورماندي حتى أصبحوا متشوقين للهجوم على فرنسا.

والتقى أخيراً الملكان، وعقدا مؤتمراً في يوم ١٦ آب بين غيسور وتراي، استمر ثلاثة أيام، وعندما انفصل الملكان من الجانبين من دون اتفاق، أمر ملك فرنسا بقطع شجرة قرب غيسور لكن جذرها كان داخل المملكة الفرنسية، وغادر الملك الانكليزي غيسور في اليوم التالي، وجاز خلال فيرنون Vernon وغزا فرنسا، وعاث بالبلاد فساداً حتى مانتي Mantes.

و في يوم ١٨ تشرين الثاني عقد اجتماع فيما بين الملكين الانكليزي والفرنسي في بونزمولين Bonsmoulins كان رتشارد كونت بواتو قد أعده، وعندما وصلا إلى المؤتمر للتباحث اقترح الملك الفرنسي أن يرد إلى الملك الانكليزي كلّ شيء استحوذ عليه منذ حمله الصليب، وأن يبقى بعد هذا كلّ شيء على ماكان عليه قبل حمل الصليب، ورد عليه ملك الانكليز، بناء على نصيحة رجال الدين وكذلك البارونات أن من

الأفضل الدخول في سلام ثابت بدلاً من تطويل خصام الطلبات.

وعندما سمع رتشارد بن هنري وكونت بواتو، هذا، تكلم ضده،لأنه بدا لـه من غير المناسـب اعادة كـويرسي Quercy على أساس هذا الشرط، وأيضـاً اعادة جميـع المقـاطعـة وأشياء أخـرى كثيرة في مملكتـه، تساوي ألـف مارك أو أكثر كـلّ سنة، مـن أجل ايجار تشاتـورو، وقلعة ايسودون Issoudun وغراسي، وطلب كونت بـواتو شيئاً آخر، فقد سأل والده أن يعطيه أخت الملك الفـرنسي لتكون زوجة له، وطالب أن يقـوم الملك هنـري بتأكيـد تملكـه لأراضيه على أسـاس ولي عهد الملـك ووريثـه، وقد طـالب بهذا كلـه مـن خلال الملـك الفرنسي، ورد الملـك الانكليزي أنـه لن يفعل هذا، بسبـب أنه سيبدو مسلوب الحريـة مرغماً، وقام بعد هذا كونت بواتو، على مشهد من الجميع بتقديم الولاء للملك الفرنسي عن كـلّ مايمتلكه والده ممـا يعود إلى المملكة الفرنسيـة، وذلك باستثناء أراضي أبيـه مادام حياً، والاحتفاظ بـالاخلاص الذي يديـن به لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وجرى تمديد الهدنة حتى ١٣ كانون الثاني.

سنة تسع وثمانين ومائة وألف

رسالة أخبار من الشرق:

«هُزم جيش صـلاح الدين عند أنطـاكية، وشرع أمير أنطاكية يـركب يوميـاً ويسير بعيداً حتـى حلب، واستـولى أدميرال مرغـريت على يـافا، وقتل جميـع الأتراك الـذين كـانوا هنـاك، وقتل خمسـة آلاف منهم وأسر ثمانية أمـراء، واستولى أيضاً على جبيـل وقتل كـلّ واحد هناك، وهـاجم صاحب مُلا Mulla وهو واحد مـن مقدمي صلاح الـدين، صلاح الديـن، وهذا مافعلـه أيضاً صاحـب ماردين، وقـاتل الخليفة، صـاحب

بغداد، الذي هو رئيس جميع الأتراك، صلاح الدين بقدر ماكان باستطاعته، وإنكم لتعلموا أن سلطان قونية قد زوج ابنته إلى ابن صلاح الدين، وزوج صلاح الدين ابنته إلى ابن السلطان، ومعروف بشكل واسع كيف أن قطز(★) Kuteyez ابن صلاح الدين قتل زوجته، ابنة السلطان، ذلك أنه من المؤكد وبلا أدنى شك، كما يقول الجميع، تحققت نبوءة دانيال القسطنطيني التي قالت:

إنه مع اقتراب حلول يوم الفصح، سيسترد الفرنسيون أرض الميعاد، وسيربطون خيولهم في حدائق نخيل بغداد، وسينصبون خيامهم خلف الشجرة الجافة، وسيفصلون البيقية عن القمح، وأنتم تعلمون بشكل مؤكد أنه قد توفر ممر في البوسفور.

وبات معروفاً بشكل واسع أن السلطان يكره امبراطور القسطنطينية، لأنه لم يدفع له الأربعمائة دينار ذهبي التي توجب عليه دفعها كلّ سنة منذ أن أصبح امبراطوراً، كما أنه لم يدفع له الثلاثمائة دينار الأخرى، وانتبهوا أيها الأخوة لماقاله لنا الامبراطور في إحدى المرات، حتى لاتنخدع العين، وفيما عدا ذلك، يمكنني أن أخبركم أن كثيراً من الترك وقعوا بالأسر عند صور، إلى حد أن اثنين من الترك يمكن بيعهما بقطعة نقدية bezant واحدة، ويقال وضع صلاح الدين في سجنه رسولاً من يوستاس باتريكوس وبالين، الذي اتخذ لنفسه زوجة، زوجة ملك

★ —كذا، ولم يكن بين أولاد صلاح الدين من حمل هذا الاسم، ومن الممكن قراءة هذا الاسم «قطب» وبالفعل كان لصلاح الدين ولد اسمه موسى، ولقبه قطب الدين، ولد بمصر سنة ٥٧٣، أي كان عمره وقت هذه الحادثة حوالي اثنتي عشرة سنة. شفاء القلوب للحنبلي —ط. بغداد ١٩٧٨ ص١٩٦.

القدس، عندما سلمه كونت طرابلس أرض الميعاد، وأنتم تعرفون أن الامبراطور قد أبدى احتراماً نحو رسل صلاح الدين في قصره أعظم مما أبداه نحو أي واحد آخر كان هناك من ذوي المناصب، وبعدما سلم صلاح الدين جميع كنائس الأرض المقدسة إلى رسل الامبراطور، وبناء عليه من الممكن أن تدار وفقاً لعادات الاغريق، وعليكم ألا تثقوا باغريقي حتى لو عاهدكم بيده، وإنكم لتعلمون أن صلاح الدين أرسل، بناء على موافقة الامبراطور وثنه [كذا] إلى القسطنطينية ليعبد بشكل علني هناك، لكن بنعمة من الرب تم الاستيلاء عليه في البحر من قبل الجنويين، وقد أخذ مع السفينة إلى صور، وهناك الآن أنباء أن جيش صلاح الدين قد توقف عند أنطاكية.

ولقد قيل بأن النبوءة التي أخبر بها اغريقي مسن من أسترالكس Astralix اللورد وولتر مقدم الداوية، والتي أغضبت الاغريق سوف تتحقق الآن، وفيها أن اللاتين سوف يحكمون مدينة القسطنطينية وسيكونون سادتها، لأنه قد كتب على البوابة الذهبية التي لم تفتح منذ مائتي سنة انقضت، إنه: «عندما يأتي الملك صاحب الشعر الأحمر من الغرب، أنا سوف أفتح من قبل ذاتي»، وجرى تسميم آسان Asan ذلك الرجل الطيب، في ثيابه الامبراطورية، ووعد الامبراطور صلاح الدين بتقديم مائة شيني، وأعطاه صلاح الدين وعداً بجميع أرض الميعاد، إذا ماتولى الامبراطور منع وصول الملك الفرنسي، وأخبركم بصدق أنه إذا مالمس أي انسان صليب القسطنطينية سوف يعتقل على الفور ويلقى به في السجن، وإليكم على كلّ حال نبوءة فلكي تركي قالت:

إنه في ثلاث سنوات، سوف يموت ثلث الأتراك بحد السيف، وسوف يفر الثلث الثاني إلى ماوراء الشجرة الجافة، أما الثلث المتبقي فسوف يعمد، ولهذا نحن نعرف أن صلاح الدين في الحقيقة لم يعد

بإمكانه ايجاد أي تركي يرغب في عمارة أرض الميعاد، أو يأخذوا أسرهم إلى هناك خوفاً من وصول الفرنسيين، وفي اليوم الذي غادر فيه حامل هذه الرسالة القسطنطينية، جاء بعض الرسل يقولون إن جيش صلاح الدين قد جرى تدميره عند أنطاكية، وأن أخاه وابنه قد وقعا بالأسر، وفي اليوم الذي غادرت أنا فيه أمر الامبراطور بمحق جميع اللاتين في امبراطوريته، وإنكم لتعلمون أنه بنعمة من الرب يوجد في مملكة قونية خمسة آلاف من الأرمن الجيدين مع خمسة وعشرين أميراً جاهزين للذهاب مع الفرنسيين للدفاع عن المسيحية، ولتحرير الأرض التي ولد فيها مولانا يسوع المسيح، ومات».

وعقدت بعد عيد الفصح المقبل مباحثات بين ملكي فرنسا وانكلترا ورتشارد كونت بواتو، مرتين في لى فيرت برنارد La Ferte Bernard لكن في النهاية، انسحب الطرفان بعد محادثات مطولة بمثابة أعداء.

تمّ وصف الأيام المأساوية الأخيرة من حكم هنري الثاني، ثم موت الملك، بشكل جيد في كتاب «أعمال الملك هنري الثاني».

غادر فيليب ملك فرنسا واستولى على لى فيرت برنارد، وفي يوم الاثنين التالي، عندما بدا أن ملك انكلترا ورجاله قد غدوا على مسافة آمنة من النقطة القصوى لزحف الملك الفرنسي، أعد الملك الفرنسي جيشه وعبأ صفوفه للمعركة بهدف الهجوم على مدينة لامانس، وفعل هذا بعدما رأى مافعله ستيفن صاحب تور والمشرف على أنجو بإلقائه النار في الربض، لكن النار زاد التهابها وبات حجمها هائلاً، فقفزت عبر الأسوار وجعلت المدينة نفسها طعمة للهب، ووقع عدد كبير من رجال جيش الملك الانكليزي بالأسر، أما البقية فقد عجزوا عن الهرب،

وكانـوا يرغبون بالتراجـع إلى المدينة، وتمكن الفـرنسيون من شق طـريق معهـم، ولـدى رؤيـة ملـك انكلترا مـايحدث خـاف كثيراً على جماعتـه، فحنث بوعـوده، وهرب من المدينة مـع سبعين فارساً، ذلك أنـه كان قد وعـد سكـان المدينة أنـه لـن يتخلى عنهـم في وقـت المحنة، ومـرد هـذا بالدرجة الأولى إلى أن والده مدفون هناك، وفي الدرجة الثانية إلى أنه هو نفسه قـد ولد هنـاك، كما أنه أحـب تلك المدينـة أكثر مـن حبه لغيرهـا، وطـارده الملـك الفـرنسي لمسـافـة ثـلاثـة أميـال، ولـولا أن نهر سـارث Sarthe الذي توجب على الفرنسيين عبوره، لم يكن يجري بارتفاع عظيم، لتـولوا مطـاردة الفارين الآخـرين بسرعـة كانـت ستمكنهم، كما تأكد بشكل عام، من أسرهم جميعاً.

وعلى كلّ حال جاء الملك الانكليـزي ومعه حاشية صغيرة إلى شينون Chinon ثم انسحب إلى داخل القلعة التي كـانت هناك، لكن بقية آل بيت الملـك تراجعـت إلى حصن قلعـة لامانـس، وعلى الفور حـاصرها ملك فرنسا وهاجمهـا بآلات حربه ورماياته، وبعد حصـار دام ثلاثة أيام استسلمت القلعة أخيراً مع ثلاثين فارساً وستين رجلاً مسلحاً.

وقـدم في يوم الأحـد التـالي فيليب كـونت فـلانـدرز، ووليم رئيـس أساقفة ريمس وهيوج دوق بيرغندي إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في سامور Saumur لقد قدموا بمباردة شخصيـة منهم بدون رضا الملك، للسعـي لإقامة تسويـة بينهما، لكن ملك فـرنسا كان قد آنـذرهم قبل انطـلاقهم في رحلتهـم، أنه سيقوم رغما عنـه، بالإعـداد لهجوم على المدينة من قلعة سان مارتن، التي كان قد عاد إليها عبر نهر اللوار.

وتمّ يوم الاثنين التالي في الثالث مـن تموز، وعلى حوالي الساعة الثالثة الاستيلاء عنوة على مدينـة تور، وكان الهجوم عليها قد أقلـع به من على ضفـاف نهر اللـوار، وذلـك نتيجـة لانخفـاض مستـوى ميـاه النهـر، —انخفض حجم الماء إلى أدنى المستويات— فآسندت من هناك السلالم

على الأسوار، وكـان في داخل المدينـة ثمانين فارسـاً ومائة رجـل مسلح، فأخذوا جميعهم أسرى، وبات ملـك انكلترا الآن في وضع حرج، لذلك أقام سلاماً مع ملك فرنسا، وفق الصيغة التالية:

«يضع هنري ملك انكلترا نفسـه في جميع الأشياء والامور تحت رأي وارادة فيليب ملك فـرنسا، إلى حد أن كلّ مـاأعده ملك فرنسـا وأمر به سينفذه ملك انكلترا كلياً وبدون اعتراض.

أولاً: قدم ملك انكلترا مجدداً الولاء لملك فـرنسا، بسبب أنه، كما ذكر أعلاه، قد سلـم جميع ممالكه إلى ملك فـرنسا، الذي كافأه في بـداية هذه الهدنة.

ثانيـاً: قرر ملك فـرنسا أن أختـه أليس، التي يحتفـظ بها ملك انكلترا تحت وصايته ستسلم وتـوضع تحت وصاية واحد من خمسـة [بارونات] سوف يختارهم رتشارد صاحب بواتـو، زيادة على هذا تعهد ملك فرنسا أن تمنح أختـه الأمان بيمين رجـال هذه البلاد، لتكـون زوجة للكـونت رتشارد إثـر عودته مـن القدس، ولسـوف يحصل الكونـت رتشارد على تبعيـة رجال أراضي أبيـه في هـذا الجانب مـن القنـال، وفي الذي يليـه، وكذلك مـامن واحد من البـارونات أو الفرسان الـذي سحبوا ولاءهم من ملك انكلترا في الحرب الحاليـة، والتحقوا بجانب الكـونت رتشارد، سـوف يعود في المستقبـل إلى ملك انكلترا، فيما عـدا الشهر الأخير قبـل انطلاقه نحو القدس.

والوقت المحدد لهذه الرحلة سيكون منتصف الصوم، ولسوف يلتقي الملكان المذكوران مع رتشارد كونت بواتو في ذلك التاريخ في فيزلي.

وكـذلك سـوف يحلل جميـع سكـان الممتلكات الملكيـة العائدة لملـك انكلترا في جميـع أراضي الملـك الفـرنسي بمـوجب عـاداتهم القـانـونيـة ولسوف لن يقاضون في أية مسألة مالم تكن جناية اقترفوها.

وقد دفن في فـونتيفرولت Fontevrault في دير الراهبـــات اللائي يعبدن الرب هناك.

ومدد في اليوم الذي تلا وفاتـه، عندما حمل إلى الدفن، في وضع ارتدى فيه مـلابسه ببهاء ملكي، وقد وضـع التاج الذهبي على رأسه، وفي يـديه قفازين، وخاتم ذهبي على اصبعـه، ممسكاً الصولجان بيده، مرتـدياً حذاء مزركشـاً بالـذهب، وهناك مهمازين على قدميـه، متمنطقاً بسيفـه، ووجهه غير مغطى، وعندمـا روي هذا لابنه الكـونت رتشارد جـاء مهرولاً بأقصى سرعة ليستقبل الموكب، ولـدى وصولـه أخذ الدم يتـدفق من أنف الملك المتوفى، وكأن روحـه تحركت سخطاً، وتبع الكـونت المذكور مـوكب جسد والده وهو يبكي وينتحب، حتى وصل إلى فونتيفرولت، حيث دفن.